

سُورَةُ التِّينِ

حِينَ يَنْهَضُ الْإِنْسَانُ
بَيْنَ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَأَسْفَلَ سَافِلِينَ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ التِّينِ

حِينَ يَنْهَضُ الْإِنْسَانُ بَيْنَ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَأَسْفَلِ سَافِلِينَ

تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

السُّورَةُ الَّتِي تَضَعُ الْإِنْسَانَ أَمَامَ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ

ليست سورة التين حديثاً عابراً عن ثمرتين مباركتين، ولا قسماً كونياً تتلأأ ألفاظه ثم تمضي دلالاته بعيداً عن جوهر الإنسان؛ إنها سورة قصيرة في عدد آياتها، ولكنها شديدة الاتساع في أفقها، كأنها مرآة وضعها الوحي أمام الكائن البشري ليرى فيها بدايته الرفيعة، وإمكانه المذهل، وانحداره المخيف، وطريق نجاته، ثم يقف في نهايتها أمام عدالة الله التي لا يختل فيها ميزان، ولا تضيق في رحابها حسنة، ولا يتوارى عنها ظلم، ولا تُسوَّى فيها القمم بالهاويات.

ثماني آيات فقط، غير أنها تستوعب رحلة الإنسان كلها: من جغرافية النبوة إلى هندسة الفطرة، ومن شرف الخلقة إلى مأساة السقوط، ومن الإيمان الذي يحفظ القيمة إلى التكذيب الذي يبدد المعنى، ومن السؤال الذي يهز الضمير: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾، إلى الحقيقة التي تستقر بها الموازين: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾. إنها لا تكتفي بأن تقول للإنسان من أين جاء، بل تسأله: ماذا صنعت بما أعطيت؟ ولا تكتفي بأن تذكر له أنه خلق في أحسن تقويم، بل تحذره من أن ذلك الحسن الأول ليس حصانة آلية من الانهيار؛ فالإنسان قد يحمل في تكوينه قابلية العروج، ثم يختار بوعيه طريق الهبوط، وقد يُمنح العقل الذي يبصر، والفطرة التي تستدل، والضمير الذي يرتجف، والوحي الذي يهدي، ثم يجعل هذه الأنوار كلها وراء ظهره ويمشي إلى العتمة بإرادته.

والمنهج الذي نسلكه في هذا الكتاب يقوم على الاقتراب من السورة من داخل بنائها القرآني؛ فنبداً بدلالة اللفظ في سياقه، وننظر في اتصال الآيات بعضها ببعض، وفي انتقال المشهد من القسم إلى جواب القسم، ومن الخَلْقَةِ إلى المصير، ومن التقرير إلى الاستثناء، ومن الاستفهام المواجه إلى إعلان الحكم الإلهي. ثم نفتح بعد ذلك نوافذ التأمل الفكري والإنساني، من غير أن نحمل النص ما لا يحتمل، أو نجعل الخاطر العابر بديلاً عن المعنى الذي تحتضنه العربية ويهدي إليه السياق. فالتدبر الحق ليس انطلاقاً من القرآن إلى الخيال المنفصل، بل دخولٌ إلى أعماق الدلالة من باب اللغة والنظم والمقصد، ثم عودةً بتلك الدلالة إلى النفس والحياة والتاريخ.

وسنحاول أن نقرأ السورة بوصفها بناءً متكاملًا لا جزأً لفظيةً متباعدة؛ فالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين ليست أقساماً مبعثرة، بل عتباتٌ تمهد للحقيقة المركزية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. وكأن الأماكن والرموز التي مر بها نور النبوة تستدعي تاريخ الهداية كله ليشهد على كرامة هذا الإنسان، وعلى أنه لم يترك وحيداً داخل غموض الوجود، بل أحاط الله فطرته بالآيات، وأرسل إليه الرسل، وأقام له في التاريخ مناراتٍ تدله كلها أضلته الشهوة أو استبد به الكبر أو حجبت المادة عنه سر وجوده.

ولن نتعامل مع «أحسن تقويم» باعتباره جمال الصورة الظاهرة وحدها، وإن كان اعتدال الخَلْقَةِ داخلياً في معناه، بل بوصفه نظاماً شاملاً أودعه الله في الإنسان: عقلاً قادراً على المعرفة، وقلباً مهياً للإيمان، وضميراً يميز، وإرادةً تختار، ولساناً يبين، وروحاً تتطلع إلى ما وراء الطين. فالإنسان ليس أكرم لأنه أقوى الأحياء جسداً؛ كم من مخلوق يفوقه قوة وسرعةً وقدرةً على احتمال الطبيعة، ولكنه أكرم لأنه يحمل قابلية معرفة الله، وفهم الخطاب، وحمل الأمانة، ومقاومة دوافعه، وتحويل غريزته إلى خُلق، وحركته إلى عبادة، وعمره المحدود إلى معنى يمتد أثره بعد انقضاء السنين.

وسنقف طويلاً أمام قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾؛ لأن بين هذه الآية وسابقتها تنكشف مأساة الإنسان الكبرى. فما أبعد المسافة بين «أحسن تقويم» و«أسفل سافلين»، وما أقربها في الواقع حين ينفصل الإنسان عن الله! قد يبدو منتصب القامة، كامل الحواس، واسع المعرفة، محاطاً بمنجزات الحضارة، بينما يكون في ميزان الحقيقة قد هبط عن مقامه؛ لأن العلو الإنساني لا يُقاس بمقدار ما تملكه اليد، بل بمقدار ما يهتدي به القلب، ولا بما يستطيع الإنسان أن يصنعه في الخارج، بل بما يمنع نفسه من أن يصير إليه في الداخل. وقد يبني المدن ثم يهدم إنسانيته، ويكتشف قوانين الكون ثم يتعالم عن خالقه، ويصل إلى أبعد الكواكب ولا يجد الطريق إلى ضميره.

غير أن السورة لا تغلق الأفق عند مشهد الهبوط؛ إذ يجيء الاستثناء كفاضة تفتح في جدار المصير: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وهنا تظهر حقيقة الإيمان في التصور القرآني: ليس زينةً داخلية تستقر في الشعور من غير أن تبدل الحركة، وليس دعوى لسانية تعزل العقيدة عن السلوك، بل قوة تعيد الإنسان إلى مقامه، وتحفظ توازنه، وتصل بين معرفته وعمله، وبين روحه وجسده، وبين دنياه وآخرته. ثم يأتي العمل الصالح شاهداً على أن النور الذي دخل القلب قد استطاع أن يعبر إلى اليد واللسان والموقف والعلاقة، وأن الإيمان لم يبق فكرةً مغلقة، بل صار عدلاً ورحمةً وصدقاً وأمانةً وبذلاً ومقاومةً للشر.

أما خاتمة السورة فتد إلى قضية الجزاء والحكم، لأن الحديث عن كرامته وسقوطه ونجاته لا يستقيم من غير يومٍ تظهر فيه القيمة الحقيقية لما صنع. فإذا انتهى المحسن والمسيء إلى العدم نفسه، وصار الظالم والمظلوم تراباً لا قيام بعده، وغابت المحكمة الأخيرة التي تسترد فيها الحقوق، فلأي معنى خلق الضمير؟ ولماذا يشتعل في النفس هذا الاحتجاج العميق على الظلم؟ ولماذا نوقن، حتى قبل أن نستدل، أن القاتل لا ينبغي أن يساوي المقتول، وأن اليد التي مسحت دمعة اليتيم ليست كاليد التي صنعت يمه؟ إن الإيمان بالدين، أي بالجزاء والحساب، ليس تفصيلاً منفصلاً عن بنية الوجود، بل هو تمام المعنى الأخلاقي للعالم؛ ولهذا تنتهي السورة بالسؤال الذي لا يترك للعقل الصادق مهرباً: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾.

إن سورة التين لا تمدح الإنسان مدحاً ساذجاً، ولا تحتقره احتقاراً قائماً؛ بل تقدمه في حقيقته المركبة: مخلوقاً مكرماً قادراً على أن يرتفع، ومخلوقاً مختاراً قادراً على أن يسقط. وكرامته ليست شهادةً يحملها مهما فعل، بل أمانةٌ ينبغي أن يحققها؛ لأن «أحسن تقويم» هو المنحة، أما الثبات عليه فهو الامتحان، والفطرة هي البداية، أما الإيمان والعمل الصالح فهما الوفاء بتلك البداية حتى لا يبدها الطريق.

ومن هنا تنطلق رحلتنا؛ رحلةً لا تقرأ سورة التين من بعيد، بل تدخل إلى فضائها آيةً آية، وتحاول أن تسمع في قسمها صوت تاريخ النبوات، وفي حديثها عن الخلق نداء الفطرة، وفي إنذارها من السقوط صرخةً توقظ الإنسان من غروره، وفي استثنائها باباً للنجاة، وفي ختامها سكينه العدالة التي تطمئن بها القلوب: إن للوجود رباً، وللحياة غايةً، وللعمل وزناً، وللألم خاتمةً، وللظالم موقفاً، وللمحسن أجراً لا ينقطع.

الفصل الأول

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ: حِينَ تَقْسَمُ الْأَرْضُ بِذَاكِرَةِ الْهُدَى

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾

تبدأ السورة بقسمٍ رقيق الألفاظ، عميق الإيحاء، تلتقي فيه نعمة الغذاء بذاكرة المكان، وتتماس فيه الثمرة التي تنضج في صمت مع الرسالة التي تغير مصير الإنسان. فلا صخب في التين حين يمتلئ حلاوةً، ولا ضجيج في الزيتون حين يخترن زيته ونوره؛ وكأن افتتاح السورة بهما يهيئ القلب لحقيقة كبرى: أن أعظم التحولات قد تنمو في هدوء، وأن البركة لا تحتاج دائماً إلى إعلان صاحب، وأن الله قد يودع في الأشياء الصغيرة من المنافع والدلالات ما تعجز عنه الأشياء التي تملأ الأبصار.

يقسم الله بما شاء من خلقه؛ لأن الخلق كله ملكه، ولأن كل موجود يحمل أثراً من آثار قدرته وحكمته، أما الإنسان فلا يقسم إلا بالله. وحين يرد القسم القرآني بشيء من الأشياء، فإنه ينقله من اعتياده الصامت إلى حضوره الدال؛ فنحن قد نرى الثمرة حتى نألفها، ونأكلها حتى ننسى سرها، فيجيء القسم ليوقظ البصيرة من سباتها، ويرد المألوف إلى دهشته الأولى: من الذي صاغ هذه الحلاوة في قلب التراب؟ ومن الذي أخرج من الماء الواحد والتربة المتقاربة مذاقاتٍ وألواناً وروائحٍ مختلفة؟ ومن الذي وضع داخل الثمرة قانون نموها، وحدد لها موسمها، وأدار في عروقها رحلة الماء والضوء حتى صارت رزقاً ناضجاً بين أيدي الناس؟

التين ثمرة تبدو مكتملةً في ذاتها؛ لينةً، حلوةً، مملوءةً بالبذور الدقيقة، وكأنها صورة مصغرة لفيض العطاء حين ينطوي الكثير داخل القليل. أما الزيتون فثمرة البركة الممتدة؛ يؤكل حبه، ويُعصر زيتُه، ويُستضاء بنوره، ويصاحب الإنسان في غذائه ودوائه ومعاشه. وبين التين والزيتون يتجلى نموذج من الكرم الإلهي الذي لا يعطي الحاجة في صورتها الجافة، بل يغلفها بالجمال والطعم واللون والرائحة. كان يمكن للغذاء أن يؤدي وظيفته بلا لذة، وللثمار أن تكون شكلاً واحداً وطعماً واحداً، لكن النعمة حين تأتي من الله لا تسد النقص وحده؛ إنها تخاطب في الإنسان الحاسة والروح، وتعلمه أن الجمال ليس فائضاً لا وظيفة له، بل طريقٌ آخر إلى معرفة المنعم.

وقد ذهب جمع من أهل التفسير إلى أن المراد بالتين والزيتون الثمرتان المعروفتان، وذهب آخرون إلى ما يتصل بمواضع نباتهما وأرض النبوات في بلاد الشام؛ وليس بين الداليتين تنافراً لازماً، فاللفظ يحتفظ بحقيقته المباشرة، بينما يفتح السياق باب الإيحاء بالمكان وتاريخه. وإذا اتصل التين والزيتون بأرضٍ مر بها الأنبياء، فإن الثمرة تغدو حاملةً لذاكرة الرسالة؛ لا لأنها تخرج من معناها إلى رمز منفلت، بل لأن القسم التالي بطور سينين والبلد الأمين يجعل الجغرافيا النبوية حاضرة في بناء السورة حضوراً قوياً.

هكذا يبدو المطلع كأنه يستدعي محطات كبرى من تاريخ الوحي: أرضاً بارك الله حولها، وطوراً نودي عنده موسى، وبلداً أميناً بُعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم. ليست الرسائل في الرؤية القرآنية حوادث منفصلةً تتنازعها الأمم، بل نهراً واحداً خرج من مشكاة التوحيد، وتعددت ضفافه وبقي ماؤه الأول: أن اعبدوا الله، واستقيموا على هداه، واعلموا أن الإنسان لا يعرف قدر نفسه حتى يعرف ربه.

إن الأرض في القرآن ليست صامتةً تماماً؛ بعض بقاعها يحمل ذاكرة السجود، وبعض جبالها شهد النداء، وبعض أوديتها مر بها الخائف فأواه الله، وبعض مدنها استقبلت الوحي فصارت منارةً للعالمين. ولا يمنح المكان قدسيته الحجرُ في ذاته، بل ما اتصل به من أمر الله وهدايته وعبادة عباده؛ فالمكان يعلو بالمعنى الذي احتضنه، كما يعلو الإنسان بالحقيقة التي يحملها. ورب أرضٍ محدودة المساحة تتسع في الوعي حتى تصير وطناً روحياً لملايين القلوب، لأنها شهدت لحظةً من لحظات اللقاء بين السماء والأرض.

وفي التين والزيتون معنى آخر ينساب إلى النفس من غير تكلف: معنى النضج. فالثمرة لا تولد مكتملةً، بل تمر بأطوار خفية، وتتلقي من الشمس والماء والتربة ما يؤهلها لتماها. وكذلك الإنسان الذي ستعلن السورة بعد قليل أنه خلق في أحسن تقويم؛ فهو يُمنح أصل الاستعداد، لكنه يحتاج إلى أن ينضج بالإيمان، وأن تتغذى فطرته بالوحي، وأن تمر إرادته في امتحانات الحياة حتى يظهر ما اختزنته من صدق أو ضعف. ليست السنوات وحدها هي التي تنضج الإنسان؛ فقد يهرم الجسد ويبقى العقل أسير نزواته الأولى، وإنما ينضجه أن يرى الحياة في ضوء غايتها، وأن يحول التجربة إلى بصيرة، والألم إلى معرفة، والنعمة إلى شكر، والقدرة إلى مسؤولية.

وكما أن الزيت لا يخرج من الزيتون إلا بعد عصر، فقد يخرج من الإنسان أنقى ما فيه تحت ضغط المحنة. ليست المحنة خيراً لذاتها، ولا الألم مطلوباً في ذاته، ولكن الله قد يجعل مما يضيق به الصدر باباً يتسع به القلب، وقد يعصر الأيام غرور الإنسان حتى يخرج منه زيت البصيرة؛ فيعرف ضعفه بعد أن كان يتوهم الاكتفاء، ويعرف قيمة العافية بعدما طال به الوجد، ويعرف مواضع الأيدي الصادقة بعدما تساقط عنه عابرو المصلحة، ويعرف الله معرفة المضطر الذي سقطت بينه وبين الدعاء حجب الادعاء.

غير أن الثمرة لا تمنح خيرها إلا إذا بقيت متصلةً بأصلها حتى أوان النضج، وكذلك الروح تذبل حين تقطع صلتها بمصدر هدايتها. يستطيع الإنسان أن يحتفظ بمظهر القوة زمنًا، وأن يغطي خواءه بالإيجاز أو المال أو الشهرة، لكن انفصاله عن الله يعمل في باطنه كما يعمل الجفاف في جذور الشجرة؛ قد تبقى الأوراق لحظةً موهمةً بالحياة، غير أن الانهيار قد بدأ منذ انقطع الماء. وما الإيمان إلا تلك الصلة التي تحفظ للروح ماءها، وللعقل اتجاهه، وللضمير يقظته، وللعمل معناه.

ويجيء التين والزيتون في صدر السورة قبل الحديث عن خلق الإنسان، كأن النعمة المحيطة به تسبق تذكيره بنعمته الكامنة فيه. فالله الذي أحسن ما حول الإنسان قد أحسن تقويم الإنسان نفسه؛ والذي أخرج الثمرة في تناسق مذاقها وتكوينها، أخرج هذا الكائن في تناسق أعضائه ومداركه وقابلياته. والكون من حوله كتاب إحسان، وخلقُه في ذاته صفحةً من ذلك الكتاب، لكنه يقرأ نعم الخارج سريعاً لأنها تشبع حاجته، ويغفل عن نعمة الداخل لأنها صارت مألوفاً من فرط قربها.

كم يحتاج الإنسان إلى أن يتأمل يده التي تتحرك بأمره، وعينه التي تنقل العالم إلى وعيه، ولسانه الذي يحول المعنى الخفي إلى كلام، وذاكته التي تحفظ ما غاب، وخياله الذي يبني ما لم يقع، وضميره الذي يحاكمه في الخلوة ولو أفلت من محاكم الأرض! إن كل واحدة من هذه القوى عالمٌ من الإعجاز، ولكن الاعتياد يضع فوق المعجزة غباراً كثيفاً، حتى يظن الإنسان أن ما صحبه منذ ولادته أمرٌ عادي، وما هو بعادي، بل هو عطاء يتكرر في كل لحظة حتى يبدو من شدة تكراره كأنه حق ذاتي لا منحة إلهية.

والقسم بالتين والزيتون يربّي في النفس أدب الالتفات إلى النعم الهائلة؛ تلك التي لا نشعر بقيمتها لأنها لم تغادرنا بعد. نحن نسمع الضجيج الذي يصنعه الفقد، ولا نسمع الصمت الذي تعمل فيه العافية؛ نتألم حين تعجز القدم، ولا نحتفل طويلاً حين تمشي، ونضطرب حين نخوننا الذاكرة، ولا نشكر ما دمنا نستدعي الوجوه والأسماء بسهولة. وما أكثر ما يعيش الإنسان داخل النعمة كما تعيش السمكة في الماء: يحيط بها من كل جانب فلا تعرفه إلا إذا فارقتها.

إن أول ما تفتحه السورة في القلب هو عين الامتنان؛ لأن من لم يرَ النعمة في ثمرة يأكلها، قد لا يرى التكرم في فطرة يحملها، ومن عجز عن قراءة أثر الله في الخبز والزيت والماء، كان أعجز عن قراءة حكمته في العقل والروح والضمير. ولهذا يبدأ الطريق إلى معرفة مقام الإنسان من الانتباه إلى آثار الرحمة المبثوثة حوله؛ فالعالم ليس مخزناً أعمى للمواد، بل مائدة آيات، وكل نعمة فيه تشير إلى يد الرحمة من غير أن تشبهها، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، وآثاره في خلقه تدل على كماله ولا تحيط بحقيقته.

وإذا كانت الثمرتان قد حملتا الغذاء والبركة، فإن الرسائل التي توحى بها مواضعهما حملت للروح غذاءها وبركتها. فالإنسان لا يعيش بالخبز وحده، ولا يستقيم جسده إذا انهارت غايته؛ إنه يحتاج إلى معنى يفسر له لماذا يعيش، وإلى ميزان يعرف به كيف يعيش، وإلى أفق يدرك في ضوئه ما الذي ينتظره بعد أن تنتهي الحياة. وقد منحه الله رزق الجسد من الأرض، وأنزل له رزق الروح من السماء، فمن أخذ الأول وترك الثاني حافظ على آلة الحياة وضيع معناها.

هكذا تضعنا الآية الأولى عند ملتقى النعمة والهداية؛ التين والزيتون رزق وآية، ثمرة وذاكرة، جمال ومنفعة، أرض احتضنت النبات وأرض احتضنت النبوة. ومن هذا المطلع الهادئ تبدأ السورة في رفع الإنسان نحو السؤال الأكبر: إذا كان الله قد أحسن رزقك، وأحاط طريقك بمنارات الوحي، وأودع فيك هذا التكوين المدهش، فكيف تنقلب على غايتك؟ وكيف تهبط من المقام الذي هياك له إلى مقام لا يليق بك؟ وكيف تحمل في داخلك إمكانية السماء ثم تختار لنفسك قاع السقوط؟

إنها لم تقل بعد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، لكنها بدأت في إعداد الروح لتلقي هذه الحقيقة؛ فأرتنا الإحسان في الثمرة قبل أن ترينا الإحسان في الخلقة، وأيقظت فينا حاسة البركة قبل أن تكشف لنا مسؤولية التكريم. وكأن الآية تقول للإنسان في همس عميق: انظر جيداً إلى ما حولك، فكل شيء يهيبك لأن تنظر إلى نفسك، وكل نعمة تسألك عن موقفك من المنعم، وكل ثمرة ناشجة تذكرك بأن وجودك أنت أيضاً ينبغي أن يبلغ أوان نضجه، وألا يسقط من شجرة العمر قبل أن يمتلئ بالإيمان والعمل الصالح.

الفصل الثاني

وَطُورٍ سَيْنِينَ: حِينَ يَرْتَفِعُ الْجَبَلُ شَاهِدًا عَلَى وِلَادَةِ الْمَعْنَى

﴿وَطُورٍ سَيْنِينَ﴾

ينتقل القسم من الثمرتين اللتين تنبتان في الأرض إلى جبلٍ يرتفع فوقها، ومن الرزق الذي يدخل الجسد إلى الوحي الذي يوقظ الروح، ومن ذاكرة البركة الساكنة في النبات إلى ذاكرة التكليف التي ارتجف لها الجبل. وليس الطور في هذه السورة ككَلَّةٍ صخرية صامتة، بل موضع موعِدٍ عظيم، ومسرحاً من مسارح الخطاب الإلهي لموسى عليه السلام، وعلامةً على أن الإنسان لم يترك ليستخرج غايته من عماء، أو يتيه في الوجود بلا كلمة تهديه؛ فقد خاطبه الله، وأرسل إليه رسله، وأقام له في التاريخ لحظات لا يستطيع الضمير أن يحوها، ولو حاولت الحضارات أن تغطيها بضجيج المادة.

و«الطور» هو الجبل، و«سينين» اسمٌ متصل بتلك البقعة المباركة التي ارتبطت بموسى عليه السلام وميقات ربه. وحين يُقسم الله به، فإن الذهن لا يقف عند ارتفاع الصخر، بل يصعد إلى ارتفاع الحدث الذي وقع عنده؛ فالمواضع تكبر بما شهدت، والجبال لا تدخل التاريخ بعلوها المادي وحده، بل بما استودعها الله من آياته. كم من جبل أعلى من الطور لم يحمل معناه، وكم من بقعة صغيرة غدت في وعي المؤمنين أوسع من القارات؛ لأن قيمة المكان لا يصنعها الحجم، بل الحقيقة التي مرّت به وتركت فيه أثرها.

لقد جاء موسى عليه السلام إلى الطور إنساناً يحمل شوقه وخوفه وحمل رسالته، وهناك تلقى الكلمات التي ستواجهه طغياناً استعبد الناس وادعى لنفسه مقاماً ليس له. لم يكن الطور ملجأً يعزل موسى عن حركة التاريخ، بل كان موضع إعدادٍ يدفعه إلى قلبها. فالوحي لا يصنع رهبانيةً تهرب من العالم، وإنما يبني إنساناً يستطيع أن يدخله وهو يحمل ميزاناً لا يذوب في موازينه، ونوراً لا تنطفئ جذوته في قصور المستكبرين، ويقيناً يجعله يقف أمام فرعون من غير أن تخدعه أبهة العرش ولا ترعبه أدوات البطش.

هنا يتكشف الفرق بين الارتفاعين: ارتفاع الجبل وارتفاع الإنسان. فالجبل يرتفع بطبيعة خلقته، أما الإنسان فيرتفع بحقيقة اختياره؛ الجبل لا يعصي مساره، ولكن الإنسان يستطيع أن يسمع الوحي ثم يدير له ظهره، وأن يعرف الحق ثم يبيعه، وأن يحمل العقل ثم يجعله خادماً لهواه. ولهذا كان ارتفاع الإنسان بالإيمان أعجب من ارتفاع الجبل بالصخر؛ لأن الجبل مسخر لما خلق له، بينما يدعى الإنسان إلى أن يختار طريقه في ميدان تتجاذبه فيه الشهوة والخوف والمصلحة والغرور.

وعندما تستحضر السورة الطور قبل أن تقرر خلق الإنسان في أحسن تقويم، فإنها تومئ إلى أن هذا التقويم لا يكتمل أثره إلا بالهداية. فقد خلق العقل قادراً على الإدراك، لكنه لا يستغني عن نور الوحي؛ لأن قدرته على التفكير لا تضمن سلامة الوجهة، كما أن قوة البصر لا تنفع من يمشي في ظلامٍ لا معالم فيه. يستطيع العقل أن يحلل الوسائل، لكنه قد يعجز وحده عن إدراك الغاية النهائية، ويستطيع أن يخبر الإنسان كيف يصنع القوة، لكنه لا يضمن أن يخبره متى يكون استعمالها عدلاً ومتى يصير طغياناً، وقد يكتشف أسرار المادة ثم يضع مكتشفاته في خدمة الإبادة؛ لأن العلم يوسع القدرة، أما الوحي فيقيم الضمير الذي يهدي تلك القدرة.

إن أزمة الإنسان لم تكن يوماً في قلة الأدوات وحدها، بل في غياب البوصلة التي توجهها. وكلما ازدادت قوته من دون أن تزداد حكمته صار أشد خطراً؛ فالوحش لا يملك إلا أنيابه، أما الإنسان إذا انفصل علمه عن أخلاقه فإنه يمنح أنيابه قدرة المصانع والجيوش والتقنيات. ومن هنا تبدو ذكرى الطور ضرورة إنسانية متجددة: لا يكفي أن تعرف ما يمكنك فعله، بل يجب أن تعرف ما يحق لك أن تفعله؛ ولا يكفي أن تمتلك القدرة على تغيير العالم، بل ينبغي أن تحمل المعيار الذي يمنعك من تحويل هذا التغيير إلى كارثة.

في الطور تلقى موسى الكلمات، والكلمة الإلهية ليست خبراً بارداً يضاف إلى مخزون الذهن، بل أمرٌ يعيد ترتيب الحياة. إنها تسمي الأشياء بأسمائها بعد أن يعث بها الطغاة؛ فتقول للعبودية إنها عبودية ولو سماها المستبد استقراً، وللظلم إنه ظلم ولو غطته القوانين، وللخوف إنه فتنه حين يمنع الإنسان من نصره الحق، وللحرية إنها عبادة لله وحده لا انفلاتاً من كل قيمة. والوحي يعيد اللغة إلى براءتها؛ لأن أول ما يفعله الطغيان قبل استعباد الأجساد هو استعباد الألفاظ، فيغير أسماء الجرائم، ويمنح الباطل ثياب الحق، ويجعل الخضوع حكمةً، والسكوت تعقلاً، والجبن سلاماً، ومقاومة الظلم فتنَةً.

وحين يذكر القرآن طور سينين، فإنه لا يستدعي ماضياً انتهى، بل يستدعي قانوناً يتكرر: لا بد للإنسان الذي يريد مواجهة فرعون من طور يصعد إليه بقلبه، ولا بد له من خلوةٍ يسترد فيها صوته من ضجيج الجماعة، ويعيد فيها ترتيب ولاءاته، ويسأل نفسه عمّن يخاف حقاً، ولن يعيش، وبأي ميزان يقيس الربح والخسارة. ليست كل عزلة هروباً؛ فقد تكون الخلوة لحظة إعداد للمواجهة، وقد يبتعد المرء عن الناس قليلاً كي يعود إليهم أكثر صدقاً، وأقل احتياجاً إلى تصفيقهم، وأشد قدرةً على احتمال مخالفتهم.

يحتاج كل مصلح إلى طوره الداخلي؛ إلى مساحةٍ لا تصل إليها أصوات المدح والذم، يقف فيها مجرداً أمام الله، فلا تغره صورته في عيون أنصاره، ولا تحطمه صورته في عيون خصومه. هناك يكتشف أن الرسالة أكبر من صاحبها، وأن الحق لا يصير حقاً بسبب بلاغة من يقوله، ولا يبطل بسبب ضعف قائله، وأن أعظم ما يفسد العاملين للقضايا العادلة أن تتحول القضية عندهم إلى مرآة للذات؛ فإذا مدحوا نشطوا، وإذا جهل فضلهم فتروا، وإذا خالفهم أحد رأوا في مخالفته خيانةً للبدء، مع أن الذي جرح أحياناً ليس المبدأ بل غرور النفس.

والطور يعلمنا أن الاقتراب من الوحي يحلّل الإنسان مسؤوليةً ولا يمنحه مجرد امتياز. فليس شرف المعرفة أن يتزين بها صاحبها، بل أن يحمل تبعاتها؛ وكل حقيقة تعرفها تضع على كتفك قدراً من التكليف. من عرف العدل لم يعد يملك عذر الجاهل إذا سكت عن الظلم، ومن ذاق معنى الحرية لا يليق به أن يشارك في استعباد الآخرين، ومن عرف الله لا يجوز له أن يعيش كأن الوجود بلا حساب. المعرفة في القرآن عهد، وليست زينة عقلية؛ ومن هنا كان العلم الذي لا يظهر في الخشية والعمل حجةً على صاحبه، لأنه أضاء له الطريق ثم اختار أن يمشي إلى الجهة الأخرى.

ولعل من ألطف ما يوحى به ذكر الجبل أن الوحي يمنح الإنسان ثباتاً يشبه ثبات الجبال، لكنه ثباتٌ حي لا جمود فيه. فالمؤمن لا يكون صخرةً قاسيةً لا تحس، بل يكون قلباً رحيماً لا تقتل الرحمة فيه الصلابة عند الحق، ولا تقتل الصلابة فيه الرحمة بالخلق. إنه يعرف متى يلين لأن المقام مقام رفيق، ومتى يثبت لأن التنازل خيانة، فلا يحول اللطف إلى ضعف، ولا يحول القوة إلى فظاظة. وموسى الذي وقف أمام فرعون بكلمة التوحيد هو نفسه الذي سقى للبرأتين في مدين، فالقوة والرحمة ليستا ضدّين في النفس المؤمنة، بل تنبعان من أصل واحد: التحرر من عبودية الذات.

ومن الطور نتعلم أيضاً أن الإنسان قد يدخل حضرة التكليف وهو خائف. لم تُلغ الرسالة الطبيعة البشرية في موسى عليه السلام، ولم تجعله كائناً لا يعرف رهبة المواجهة؛ لكنه تعلم أن الشجاعة ليست غياب الخوف، بل أن تمضي في طاعة الله مع وجوده. كثيرون ينتظرون لحظة تزول فيها مخاوفهم كلها كي يقوموا بالواجب، ولا تأتي تلك اللحظة؛ لأن النفس لا تنضج بالانتظار، وإنما تنضج حين تتحرك في الطريق وهي تستمد من الله ما يعينها على تجاوز ارتجافها.

إن الخوف غريزة تحفظ الحياة، لكنه إذا انفصل عن الإيمان قد يحفظ الجسد ويهدم المعنى. وما قيمة عمرٍ طويل عاشه الإنسان منحياً أمام الباطل، يحرس أيامه ويضيع نفسه؟ وما قيمة سلامةٍ تُشترى بثمن التخلي عن المظلوم، أو مكانةٍ تُبنى فوق صمت الضمير؟ إن سورة التين ستحدثنا عن «أحسن تقويم»، ومن تمام هذا التقويم أن الإنسان يستطيع تجاوز أسر غريزته؛ فالحيوان يهرب مما يخافه بدافع طبيعته، أما الإنسان فقد يتقدم إلى موضع الخطر لأنه أدرك قيمةً أسمى من مجرد البقاء.

والطور شاهدٌ كذلك على أن الهداية لا تعني انعدام المشقة. فالتقرب من الله لا يحول الحياة إلى طريق خالٍ من الابتلاءات، لكنه يحول الابتلاء من عبثٍ مؤلم إلى امتحان ذي معنى. قد يبقى الطريق وعراً، ولكن السائر يعرف وجهته؛ وقد يظل الحمل ثقيلاً، لكنه يعرف لماذا يحمله. وأشد ما يسحق الإنسان ليس الألم وحده، بل الألم الذي لا يفهم له غاية؛ ولهذا يمنح الإيمان صاحبه قدرةً عجيبة على الاحتمال، لأنه يرى اللحظة داخل قصة أكبر، ويرى الجرح داخل حكمة قد لا تنكشف له الآن، ولكنه يوقن أن الله لا يضيع صبراً ولا دمعاً ولا خطوةً مشأها العبد إليه.

ومن التين والزيتون إلى طور سينين ترتفع السورة بنا من نعمة الرزق إلى نعمة الخطاب؛ فكأنها تقول: الذي أطعم جسدك لم يترك روحك جائعة، والذي أنبت لك الثمار أنزل لك الكلمات، والذي جعل في الزيت نوراً للحمس جعل في الوحي نوراً للبصيرة. وما أفدح خسارة الإنسان حين يملأ مائدته ويترك قلبه خاوياً، ويحرص على علاج جسده من كل علة ثم يترك روحه تفترسها أمراض الكبر والحسد والرياء واليأس.

وفي عالم يزعم أن الإنسان يستطيع الاكتفاء بعقله المجرد، يقف الطور ليذكّره بأن العقل نفسه منحة تحتاج إلى هداية وتهذيب. ليس الوحي خصماً للعقل، بل حارساً له من أن يتحول إلى محامٍ بارع عن الشهوة؛ فالعقل حين يستقل عن النور لا يتوقف عن العمل، لكنه قد يعمل في الاتجاه الخطأ، وقد يصنع للبغي فلسفةً، وللعنصرية نظريةً، وللنهب قانوناً، وللإبادة مبرراتٍ باردة. وما أخطر الباطل حين يتسلح بالذكاء؛ لأن الجاهل قد يرتكب خطيئةً واحدة، أما الذكاء المنحرف فيبني للخطيئة نظاماً كاملاً.

لهذا لا يقف الطور في السورة مجرد أثرٍ بعيد من قصة موسى، بل يقف شاهداً على حاجة «أحسن تقويم» إلى الوحي الذي يحفظه من «أسفل سافلين». إن الإنسان مهياً للسمو، لكنه ليس مضمون السمو بغير اختيار؛ وهو قادر على أن يسمع كلام الله، وقادر كذلك على أن يتبع فرعون، بل قادر - إن أفسد فطرته - على أن يصنع فرعونه الصغير في البيت أو الجماعة أو المؤسسة، فيستبد بمن دونه لأنه عجز عن مقاومة شهوة السيطرة في داخله.

وما فرعون إلا صورة قصوى لإنسان نسي حدوده؛ بدأ خروجه من مقام العبودية في القلب قبل أن ينطق بادعائه بلسانه. وكل طغيان كبير كانت له في النفس بداية صغيرة: إعجابٌ بالذات لم يُقاوم، واستصغارٌ للآخرين لم يُراجع، وحبٌّ للطاعة لم يُهذب، واعتيادٌ على الإفلات من المحاسبة. ثم تكبر البذرة حتى يظن صاحبها أن اختلاف الناس معه جريمة، وأن إرادته هي الحق، وأن البلاد والعباد امتداد لذاته. لذلك لا يكفي أن نلعن فرعون التاريخ، بل يجب أن نطفئ فرعون القابل للنشوء في أعماقنا.

إن طور سينين يعلم الإنسان أن أول الحرية سجدة، وأن من لم يتحرر لله سيظل ينتقل بين عبوديات متعددة، ولو سُمي انتقاله تحرراً. قد يتحرر من سلطان شخص ليقع تحت سلطان شهوته، أو يخرج من قيد مجتمع ليقع في قيد صورته أمام الجماهير، أو يرفض تقليد الآباء ثم يقلد عصره من غير وعي. أما العبودية لله فتحرره من كل ما سواه؛ لأنها تمنحه مركزاً ثابتاً يقيس به الأشياء، فلا يركع للقوة لأنها قوية، ولا يقدر الفكرة لأنها شائعة، ولا يبيع ضميره لأن الثمن مرتفع.

وحيث يغادر القارئ هذه الآية، ينبغي ألا يرى الطور بعيداً عنه؛ فلكل إنسان لحظة يُنادى فيها من داخله إلى أن يختار، ولكل قلب جبل ينبغي أن يصعده كي يسمع الحقيقة فوق ضجيج أهوائه، ولكل حياة فرعونٌ ما يطلب منها أن تخضع: خوف، أو شهوة، أو عادة، أو شخص، أو جمهور، أو مصلحة. والسعيد من عرف طوره، وسمع نداء ربه، ثم نزل من خلوته يحمل كلمة لا ليعلو بها على الناس، بل لينقذ بها ما استطاع من إنسانيتهم وإنسانيته.

الفصل الثالث

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ: الْمَكَانُ الَّذِي اخْتَضَنَ الرِّسَالَةَ الْخَاتِمَةَ

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾

ثم تبلغ الأقسام محطتها الثالثة: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾. لا تقول الآية: «وبلد أمين»، بل تقول: ﴿وَهَذَا﴾؛ فتأتي الإشارة قريبة حاضرة، كأن المكان قائم أمام العين، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يسمع القسم وهو في رحاب مكة، البلد الذي عرف خطواته الأولى، وشهد يثمه وصباه وأمانته، ثم شهد نزول الوحي عليه ومقاومة قومه لدعوته. إنها إشارة تجعل الجغرافيا حية، وتجعل البلد حاضراً في اللحظة القرآنية لا اسماً غائباً في خرائط التاريخ.

ومكة هي البلد الأمين بجرمة جعلها الله لها، وبدعاء إبراهيم عليه السلام، وبالبيت العتيق الذي تهوي إليه الأفئدة. لكن الأمن هنا لا يُقرأ بوصفه حالةً سياسيةً عابرة قد تضطرب في زمن وتستقر في زمن، بل حرمة أصلية أودعها الله في هذا المكان، وجعله بها موئلاً نتطلع إليه القلوب، حتى كان العربي في جاهليته يرى قاتل أبيه في الحرم فلا يهيج؛ إذ بقي في الفطرة الموروثة شيء من إجلال البيت، وإن أحاطت به الأوثان وشوّهت الجاهلية كثيراً من معالم التوحيد.

والعجيب أن البلد الأمين كان يومئذ يضيق بأصدق أبنائه وأرحمهم؛ فقد كانت مكة آمنةً في حرمة المكان، لكنها لم تمنح الأمان لحامل الرسالة التي ستعيد إليها معنى أمنها. وهنا تتكشف مفارقةً إنسانية مؤلمة: قد يقدس الناس الرمز ويحاربون الحقيقة التي يمثلها، ويحرسون جدران المعبد ثم يغلقون قلوبهم عن رب المعبد، ويفخرون بالميراث الروحي وهم أبعد ما يكونون عن روحه. فما أسهل أن يتحول الدين في الوعي الجامد إلى هوية تُرفع، وما أصعب أن يبقى عهداً يهذب الغرور ويقيّد الظلم.

كانت قريش تعرف محمداً صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين، لكنها حين جاءها بصدقٍ يمس مصالحها أنكرت ما كانت تعرف. فالناس قد يحبون صدقك ما دام لا يطالبهم بتغيير شيء، ويثنون على أمانتك ما دامت لا تكشف خيانتهم، ويحترمون أخلاقك ما دامت زينة شخصية لا ميزاناً يحاكم نظمهم وعلاقاتهم. أما حين تتحول الفضيلة إلى شهادة على فسادهم، فإن المدح القديم قد ينقلب عداءً؛ لا لأنهم اكتشفوا في صاحب الحق كذباً، بل لأنهم اكتشفوا أن صدقه لن يترك باطلهم مطمئناً.

ولهذا فإن ذكر البلد الأمين لا ينفصل عن معنى الأمانة التي حملها النبي صلى الله عليه وسلم. المكان أمين، والرسول أمين، والوحي أمانة، والإنسان الذي ستتحدث عنه السورة مخلوق لحمل الأمانة. وكأن خيوط المعنى تتجمع لتسأل: هل يكون الإنسان وفيّاً لما استودعه الله فيه، أم يخون مقامه فيهبط من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين؟ فالسقوط ليس فقدًا لقدرة الخلق، بل خيانةً للغاية التي مُنحت لأجلها تلك القدرة.

إن الأمان الحقيقي أوسع من أن يكون سلامة الجسد من الاعتداء، على جلال هذه النعمة وضرورتها؛ فهناك أمان الضمير من التمزق، وأمان القلب من الذعر الوجودي، وأمان المجتمع من الظلم، وأمان الحقوق من عبث الأقوياء، وأمان الحقيقة من التزوير. وقد يعيش الإنسان خلف الأبواب المحكمة، تحرسه الأسوار والكاميرات، بينما تسكن في داخله مدينةٌ مذعورة لا تنام؛ لأنه فقد المعنى الذي يطمئن إليه. وقد يكون قليل المتاع، مهدداً في واقعه، لكن قلبه مستندٌ إلى يقين يجعل الخوف عارضاً لا وطناً.

لا يصنع الأمان الحقيقي تراكم أدوات القوة وحده؛ فقد تزداد الأدوات ويزداد معها الهلع، لأن القوة إذا لم يضبطها العدل تحولت إلى مصدر خوفٍ جديد. إن المجتمع الذي يأمن فيه الظالم من الحساب ولا يأمن فيه الضعيف على حقه ليس مجتمعاً آمناً، مهما امتلأت شوارعه بالحراس. والأمن القرآني ثمرة إيمانٍ وعدل، لا مجرد هدوء مفروض؛ إذ قد يكون الصمت الذي يسود مكاناً ما صمت المقابر، لا طمأنينة الأحياء، وقد يكون غياب الاحتجاج دليلاً على شدة القمع، لا على غياب المظالم.

والبلد الأمين يذكّرنا بأن قداسة المكان لا تعفي الإنسان من مسؤوليته الأخلاقية. فمن عاش بجوار الآيات ولم يهتد بها كانت مجاورته حجةً عليه، ومن طاف بالبيت ثم طاف قلبه حول شهواته لم يحقق معنى الرحلة، ومن استقبل القبلة بجسده وأدار ضميره إلى غير الحق لم تنقذه هيئة الاتجاه من ضياع الوجهة. إن القرب المكاني من المقدسات لا يساوي قرب القلب من الله؛ فقد وقف المشركون عند الكعبة وهم يجادلون الوحي، وكان بلال البعيد في نسبه ومكانته الاجتماعية أقرب إلى رب البيت منهم جميعاً.

وهنا تتحرر المقدسات من احتكار العصبية؛ ففكة لا تخص قوماً بقدر ما تحمل رسالةً للعالمين، والبيت لم يُرفع ليكون عنوان تفوق عرقي، بل مركز توحيد يخلع عنده الناس امتيازاتهم المصطنعة. الجميع يطوفون حول مركز واحد، ويلبسون في الإحرام ما يخفف الفوارق، ويتجهون في الصلاة إلى قبلة واحدة؛ وكأن الإسلام يهدم أوهام المركزيات البشرية ليقول: لستم أنتم المركز، الله هو الغاية، وأنتم جميعاً عباده.

وما أجمل أن يجيء القسم بالبلد الأمين بعد طور سينين؛ فهناك ذكرى موسى عليه السلام، وهنا موطن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وبينهما يمتد موكب النبوة واحداً في أصله، متنوعاً في شرائعه وتفصيل مسيره. إن القرآن لا يقدم الرسالة الخاتمة قطيعةً متكبرة مع تاريخ الأنبياء، بل تماماً له وتصديقاً لأصله، ويعلم المؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يحب موسى وعيسى وإبراهيم وسائر رسل الله، وألا يجعل الإيمان نداءً عصبية جديدة، بل عهداً بالانتماء إلى موكب التوحيد كله.

والبلد الأمين لم يكن كثير الزرع، لكنه صار موطناً لكثير المعنى. وهذا من أسرار مكة: أرضٌ غير ذات زرع، لكنها أنبتت في التاريخ أمة؛ قليلة الماء، لكنها فجّرت في العالم نهراً من الهداية؛ تحيط بها الجبال الصامته، لكن الكلمة التي خرجت منها بلغت أطراف الأرض. وكأن الله أراد أن يجرّد الرسالة في مهدها من مظاهر القوة المادية، حتى لا يقال إن خصوبة الأرض هي التي صنعت نفوذها، أو إن إمبراطوريةً قائمةً حملتها إلى الشعوب؛ لقد خرجت من وادٍ لا يملك مقومات الهيمنة الأرضية، لتحمل من قوة الحقيقة ما يغنيها عن كل نسبٍ مادي.

وهذا يمنح القلوب المستضعفة عزاءً عظيمًا: ليست البدايات المحدودة حكمًا على النهايات، ولا قلة الإمكانيات دليلًا على ضآلة الرسالة. قد يخرج التحول من مكانٍ يزدرية الناس، وقد يحمل الفقير من المعنى ما تعجز عنه خزائن الأثرياء، وقد تبدأ الفكرة الصادقة في غرفة ضيقة ثم يصبح لها في التاريخ أفقٌ لا تحده الجدران. إن الله لا يقيس المشاريع بمظاهرها الأولى، وإنما بما فيها من صدق، وبما يقدره لها من أثر.

لكن الانتساب إلى مكة أو إلى الرسالة التي خرجت منها ليس شرفًا لفظيًا يكتفى به، فالذين حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أهل البلد نفسه، وأعرف الناس بشعابه، وأشدهم افتخارًا بالبيت، ومع ذلك لم تنفعهم الجغرافيا حين خاصموا الهداية. وهنا يسقط وهمُّ يتكرر في حياة الأمم: أن الاسم يغني عن الحقيقة، وأن التاريخ المجيد يستطيع أن يستر حاضرًا خاليًا من قيم ذلك المجد. لا يشفع للأمة أنها حملت رسالةً في الماضي إذا صارت في الحاضر عبئًا على مقتضياتها، ولا ينقذ الفرد أنه ينتسب إلى الصالحين إذا كان عمله ينقض طريقهم.

تقول الآية: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، فتجعل الأمن صفةً للبلد، لكنها في الوقت نفسه تستدعي مسؤولية الإنسان عن حماية هذا المعنى. فالله شرع حرمة المكان، وعلى البشر ألا ينتهكوها؛ وأعطاهم أصول العدل، وعليهم أن يقيموها؛ وأودع فيهم قابلية الرحمة، وعليهم أن يحولوها إلى مؤسسات وعلاقات ومواقف. إن النعمة الإلهية لا تلغي التكليف البشري، بل تؤسسه؛ وكلما عظم ما أعطي الإنسان عظمت مساءلته عما فعل به.

وفي عبارة «البلد الأمين» تلتقي الحاجة المادية بالحاجة الروحية: يحتاج الإنسان مكاناً لا يخاف فيه على جسده، كما يحتاج حقيقة لا يخاف معها من عبث المصير. وإذا كان الوطن يمنحه هويةً في الأرض، فإن الإيمان يمنحه وطناً في الوجود؛ يجيبه عن سؤال: إلى من أنتمي في هذا الكون؟ ولماذا جئت؟ وإلى أين أعود؟ وما قيمة ما أفعله في المدة القصيرة بين الميلاد والموت؟ ومن دون هذا الوطن المعنوي يبقى الإنسان غريباً ولو سكن مسقط رأسه، وتظل روحه مشردةً ولو أحاطت بها الجدران المألوفة.

وكم من إنسان خرج من بلده مكرهاً فحمله في قلبه، لأن الوطن ليس تراباً وحده، بل ذاكرةٌ وأسماءٌ وروائحٌ ووجوهٌ وطرقاتٌ حفظت خطاه. وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة وهي أحب البلاد إليه، لا زهداً فيها، بل لأن أهلها ضيقوا على الرسالة؛ فكشف خروجه أن حب الوطن لا يعني الخضوع لظلمه، وأن الوفاء للمكان قد يقتضي مقاومة الباطل الذي يشوهه. ثم عاد إليه فائحاً، فلم يجعل النصر مناسبةً لشفاء جراح الذات، بل باباً للعفو وتحرير المكان من الوثنية.

هنا يبلغ معنى الأمن ذروةً أخرى: أن يأمن منك من أصبح تحت قدرتك بعد أن كنت تحت قدرته. فخالق يظهرون ضعفهم حين يُظلمون، لكنهم يكشفون معدنهم الحقيقي حين يقدرّون؛ إذ قد يطلب المظلوم العدالة ما دام عاجزاً، فإذا تمكن أعاد إنتاج الظلم باسم الثأر. أما النبوة فتعلم الإنسان أن النصر ليس انتقال السوط من يد إلى يد، بل كسر المنطق الذي جعل السوط حاكماً.

ولذلك فإن مكة ليست مجرد نهاية في سلسلة القسم، بل شاهدٌ على النموذج الإنساني الذي يصنعه الوحي: رجلٌ يخرج منها مطارداً ثم يعود إليها قادراً، فلا تسكره القدرة، ولا يحكمه الجرح، ولا ينزل من مقام الرسالة إلى شهوة الانتقام. هنا يتجلى «أحسن تقويم» في أبهى صوره الأخلاقية؛ ليس في اعتدال الجسد فقط، بل في قدرة الروح على أن تتجاوز ألمها، وأن تختار العفو حين يكون العفو قوةً وإصلاحاً، وأن تبقى وفيةً للحق حتى وهي تمسك بزمام الغلبة.

وهكذا تكتمل أماننا الأقسام الثلاثة: التين والزيتون بما يحملانه من رزق وبركة وذكرى، وطور سينين بما يحمل من خطاب وتكليف ومواجهة، والبلد الأمين بما يحمل من خاتمة الرسالة وحرمة المكان وأمانة الإنسان. إنها ليست مقدمةً زخرفيةً لجواب القسم، بل تاريخٌ من الإحسان والهداية يُستدعى كله قبل الإعلان عن حقيقة الخلق البشري.

فكان السورة تجمع شهودها قبل أن تنطق بحكمها: هذه ثمار الأرض تشهد أن الخالق أحسن الإمداد، وهذه جبال الوحي تشهد أنه أحسن الإرشاد، وهذا البلد الأمين يشهد أنه أتم الرسالة؛ فهل يكون الإنسان - بعد كل ذلك - خلقاً مهملاً بلا غاية؟ وهل يستوي من حفظ أمانة التكريم بمن خانها؟ وهل ينتهي صعوده وهبوطه إلى مصير واحد؟ كلا؛ فبعد أن أقسم الله بآيات النعمة ومواطن النبوة، ستأتي الحقيقة التي يدور حولها بناء السورة كله:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

الفصل الرابع

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ: الْكَرَامَةُ الَّتِي صَاغَهَا اللَّهُ وَالْأَمَانَةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْإِنْسَانُ

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

بعد أن أقسم الله بالتين والزيتون، وبطور سينين، وبهذا البلد الأمين، جاء جواب القسم قوياً مؤكداً، تحيط به اللام و«قد» إحاطة التثيت بالحقيقة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. وكأن هذه الأقسام كلها كانت تهئ الوعي لتلقي الخبر الذي ينبغي ألا يمر في النفس مرور المألوف: أنت - أيها الإنسان - لست خطأ عابراً في حركة المادة، ولا ذرة مهملّة رمت بها مصادفةً عمياء إلى ضفة الحياة، بل مخلوق أرادته الله، وصاغ تكوينه بحكمة، وأودع فيه من الاستعدادات ما يجعله أهلاً للخطاب والتكليف والمعرفة والعبادة والعمران.

إن أول ما تمنحه الآية للإنسان هو اليقين بأصل وجوده؛ فالوجود الذي يأتي من إرادة الله لا يكون عبثاً، والخلقة التي ينسبها الله إلى نفسه لا يمكن أن تكون بلا حكمة. وقبل أن تسأل الآية الإنسان عما صنع، تخبره بما صنع الله فيه؛ وقبل أن تحمله مسؤولية الاختيار، تضع أمامه عظمة المنحة. وهذا من تمام العدل الإلهي: فالتكليف لا يسبق التهيئة، والمساءلة لا تسبق منح الأدوات، والطريق لا يطلب من الإنسان أن يمليه قبل أن يُعطى القدرة على تمييز معاملة.

و«التقويم» أوسع من مجرد الصورة الجسدية، وإن كان اعتدال الجسد وجمال بنائه ودقة أعضائه داخلاً فيه دخولاً ظاهراً. إنه إحكام الخلقة وتسويتها وتهيئتها لأداء غايتها؛ ولذلك لا تقف دلالاته عند انتصاب القامة أو تناسب الهيئة، بل تمتد إلى مجموع ما ركبه الله في الإنسان من جسدٍ وعقلٍ وروحٍ وفطرةٍ وإرادةٍ وضمير، وما منحه من قابليةٍ للتعلم والبيان والتذكر والتخيل والتخطيط والتمييز الأخلاقي.

لقد خلق الله الإنسان في صورةٍ تسمح له بأن يرفع وجهه إلى السماء، وأن يبسط يديه للعمل، وأن يحول المادة من حوله إلى أدواتٍ وعمران، وأن يحمل الأشياء الدقيقة بأصابعه، وأن ينقل تجربته بلغةٍ تتجاوز حدود اللحظة. غير أن عظمة تكوينه لا تكمن في اليد وحدها، بل في المعنى الذي يوجه اليد؛ فقد تبني بيتاً ليتيم، وقد تصنع سلاحاً يقتله، وهي في الحالين اليد نفسها، لكن الإنسان الأخلاقي وراءها ليس واحداً. وهنا يظهر أن «أحسن تقويم» ليس مجرد قدرةٍ آلية، بل إمكانٌ مفتوح على المسؤولية.

لقد مُنح الإنسان عقلاً لا يكتفي باستقبال العالم، بل يسأل عنه، ويفكك ظواهره، ويربط أسبابه بنتائج، ويستحضر الماضي، ويتوقع المستقبل، ويحول التجربة الفردية إلى معرفةٍ تتوارثها الأجيال. يستطيع الطفل الذي يولد لا يعرف شيئاً أن يحمل بعد سنوات تراث قرونٍ من العلم، وأن يبدأ من النقطة التي انتهى إليها السابقون، وكأن الذاكرة الإنسانية نهرٌ طويل تصب فيه العقول ثم يشرب منه القادمون. وهذه القدرة وحدها آيةٌ لا ينقضي العجب منها: كيف تُحفظ الأفكار في الأصوات والحروف، ثم يعبر بها الموتى إلى عقول من لم يولدوا في زمنهم؟

وَمُنح الإنسان لساناً لا ينقل المعلومات وحدها، بل يحمل الحب والخوف والرجاء والاعتذار والوعد والشعر والدعاء. بالكلمة يستطيع أن يواسي قلباً يكاد ينكسر، وأن يوقظ أمةً من سباتها، وأن يبرئ مظلوماً، وأن يعقد عهداً، وأن يعلم جاهلاً؛ وبالكلمة نفسها يستطيع أن يفتری، ويخذل، ويحرض، ويقتل المعنى قبل أن تصل اليد إلى الجسد. لذلك كان البيان جزءاً من كرامة الإنسان، وكانت مسؤوليته عن كلامه وجهاً من وجوه التكليف؛ فالنعمة التي ترفعك قد تهبط بك إذا فصلتها عن غايتها.

وَمُنَحْ ذَاكِرَةً تَحْفَظُ مَا مَضَى، وَخَيَالًا يَتَجَاوَزُ مَا وَقَعَ إِلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ. بِالذَّاكِرَةِ تُتَكُونُ هُوِيَّتُهُ، وَبِالْخَيَالِ يَبْنِي غَدَهُ؛ بَيْنَهُمَا يَعِيشُ حَاضِرُهُ مُشْدُودًا إِلَى مَا كَانَ وَمَا سَيَكُونُ. لَكِنَّهُ قَدْ يَحُولُ الذَّاكِرَةُ إِلَى سَجْنٍ يَجْتَرِ فِيهِ أَلَمُهُ، أَوْ يَجْعَلُهَا مَدْرَسَةً يَسْتَخْرِجُ مِنْ جِرَاحِهَا بَصِيرَةً؛ وَقَدْ يَحُولُ الْخَيَالُ إِلَى مَصْنَعِ مَخَافٍ تَسْتَهْلِكُهُ، أَوْ يَجْعَلُهُ نَافِذَةً يَرَى مِنْهَا إِمْكَانَ التَّغْيِيرِ. إِنْ مَلَكَاتِ الْإِنْسَانُ لَيْسَتْ مُحْكَمَةً بِنَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَهِيَ أَدَوَاتُ التَّكْرِيمِ وَمَادَّةُ الْامْتِحَانِ مَعًا.

وَمُنَحْ قَلْبًا لَا يُرَادُ بِهِ فِي الْخُطَابِ الْقِرَائِيٍّ مَجْرَدُ الْعُضْلَةِ الَّتِي تُضَخُّ الدَّمُ، بَلْ مَرْكَزُ الْوَعْيِ وَالْإِرَادَةِ وَالتَّوَجُّهِ؛ قَلْبًا يَفْقَهُ أَوْ يَغْفُلُ، يَلِينُ أَوْ يَقْسُو، يَطْمَئِنُّ أَوْ يَضْطَرِبُ، يَبْصُرُ الْحَقِيقَةَ أَوْ يَعْصِي عَنْهَا. وَقَدْ تَكُونُ الْعَيْنُ مَفْتُوحَةً وَالْقَلْبُ مَحْجُوبًا، وَقَدْ يَفْقَدُ الْإِنْسَانُ بَصَرَهُ بَيْنَمَا يَكُونُ أَشَدَّ النَّاسِ رُؤْيَةً لِمَعْنَى. وَهَنَا يَتَجَاوَزُ «أَحْسَنُ تَقْوِيمٍ» مَقَايِيسُ الْجَمَالِ السُّطْحِيَّةِ الَّتِي صَنَعَتْهَا الْأَذْوَاقُ الْمُتَغَيِّرَةُ؛ فَقِيَمَةُ الْإِنْسَانِ لَا تُتَوَقَّفُ عَلَى مَلَاحِمِهِ وَلَا عَلَى تَمَامِ قُوَّتِهِ الْجَسَدِيَّةِ، وَإِنَّمَا تُتَّصِلُ بِسَرِّ التَّكْلِيفِ الَّذِي يَحْمِلُهُ، وَبِقُدْرَتِهِ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَفَعْلِ الْخَيْرِ فِي الْحُدُودِ الَّتِي أَتَاهَا اللَّهُ لَهُ.

فَالْآيَةُ لَا تَفْتَحُ بَابًا لِاحْتِقَارِ الْمَرِيضِ أَوْ ذِي الْإِعَاقَةِ، وَلَا تَجْعَلُ اخْتِلَافَ الْأَجْسَادِ خُرُوجًا عَنِ التَّكْرِيمِ؛ إِذِ الْمَقْصُودُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ بَنِيَّةٍ وَاسْتِعْدَادٍ، وَالْإِبْتِلَاءَاتُ الْجَسَدِيَّةُ لَا تُنْزَعُ عَنْ صَاحِبِهَا إِنْسَانِيَّتَهُ وَلَا مَقَامَهُ عِنْدَ اللَّهِ. وَرَبُّ جَسَدٍ ضَعِيفٍ حَمَلَ قَلْبًا عَظِيمًا، وَرَبُّ عَيْنٍ لَا تَرَى أَبْصَرَتْ مِنَ الْحَقِّ مَا عَمِيتَ عَنْهُ أَبْصَارٌ صَحِيحَةٌ، وَرَبُّ إِنْسَانٍ مُحَدُودٍ الْحَرَكَةَ تَرَكَ فِي حَرَكَةِ التَّارِيخِ أَثْرًا وَاسِعًا. إِنْ مَقَايِيسُ اللَّهِ لَا تُسْتَنْسَخُ مَقَايِيسُ الْأَسْوَاقِ الَّتِي تَزِنُ النَّاسَ بِمَقْدَارِ مَنْفَعَتِهِمُ الْمَادِيَّةِ أَوْ جَاذِبَتِهِمُ الْخَارِجِيَّةِ.

بل لعل من أعظم ثمرات هذه الآية أنها تحطم كل معيارٍ يجعل بعض البشر أقل إنسانيةً بسبب اللون أو الجنس أو اللغة أو النسب أو الفقر أو العجز. فالخطاب يقول: ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، فينسب التكريم إلى حقيقة الإنسان قبل أن تتوزع عليه الأسماء والهويات والمواقع. وكل نظامٍ يهدر إنسانية فئة ليقيم مجد فئة أخرى إنما يترد على أصل الخلقة، وكل مستكبر يرى نفسه أرفع جوهرًا من غيره يعيد في داخله خطيئة إبليس حين نظر إلى المادة وغفل عن أمر الله.

إن الآية لا تقول إن الله خلق الغني في أحسن تقويم دون الفقير، ولا القوي دون الضعيف، ولا السيد دون الخادم، ولا أمةً دون أمة؛ إنها تمنح الإنسان من حيث هو إنسان أصل الكرامة، ثم تفتح باب التفاضل الأخلاقي بما يختاره من تقوى وعمل. وهذا التحول عظيم في تاريخ الوعي؛ لأن المجتمعات كثيراً ما تثبت للإنسان قيمةً مستعارةً مما يملك، بينما القرآن يثبت له قيمةً أصليةً ممن خلقه. الناس يسألونك عن موقعك، والآية تذكرك بأصلك؛ الناس يزنونك بمدى حاجتهم إليك، والله يذكرك أنك عبدٌ خلقه في أحسن تقويم.

غير أن التكريم القرآني ليس تدليلاً للنفس، ولا ترخيصاً للغرور، بل تحميلٌ لها بالتبعة. فالذي يعرف أنه خلُق في أحسن تقويم لا يجوز له أن يرضى لنفسه بالدناءة، ولا أن يبيع ضميره بثنٍ عابر، ولا أن يجعل شهوته قائداً لعقله. إن الآية لا تقول للإنسان: أنت عظيم مهما صنعت، بل تقول له: لقد مُنحت بنيةً عظيمة، فانظر ماذا تصنع بها. وبين العبارتين مسافةٌ تفصل التكريم المسؤول عن النرجسية التي تعبد الذات.

لقد أهلك الإنسان الحديث نفسه حين قرأ كرامته منفصلةً عن العبودية؛ فتوهم أنه سيدٌ مطلق لا يسأل عما يفعل، وأن العالم مخزنٌ مفتوح لرغباته، وأن الحرية تعني أن تتحرك الإرادة بلا غاية تعلوها. لكنه كلما تحرر من الحدود التي تحفظ إنسانيته وقع في حدود رغباته، وكلما أعلن نفسه مركز الوجود اكتشف في داخله فراغاً لا تملؤه الأشياء. إن الإنسان لا يصير كبيراً حين يستغني عن الله، بل يفقد المعيار الذي يعرف به معنى كبره؛ لأن الكرامة التي لا تُنسب إلى خالق تصبح دعوى بلا أساس، والقيمة التي لا تتصل بغاية أعلى قد تبدل بتبدل القوة والمنفعة.

ومن روعة التعبير قوله سبحانه: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ فحرف «في» يشعر بأن الإنسان أُحيط بهذا التقويم وأدخل في نظامه، لا أن الحسن صفةٌ هامشية ألصقت به من الخارج. إنه كائنٌ موزون التكوين، تتآلف في داخله قوى مختلفة: غريزةٌ وعقل، حاجةٌ وضمير، ترابٌ وروح، ميلٌ إلى الأرض وقابليةٌ للعروج. وليس كماله في إلغاء أحد طرفيه، بل في إقامة التوازن الذي يجعل الأدنى خادماً للأعلى، ويمنح الجسد حقه من غير أن يسلبه قيادة المصير.

فالإسلام لا يحتقر الجسد، ولا يعد الطعام والزواج والراحة أعداءً للروح؛ لأن الذي خلق الروح هو الذي خلق الجسد، والذي شرع العبادة هو الذي أباح الطيبات. لكنه يرفض انقلاب الوظائف؛ يرفض أن يصبح الجسد معبوداً، والشهوة غايةً، واللذة معياراً وحيداً للخير. إن «أحسن تقويم» هو هذا الانسجام الذي لا تُقتل فيه الفطرة ولا تُترك بلا تهذيب، فلا رهبانية تعذب الجسد طلباً للنقاء، ولا مادية تذبج الروح طلباً للمتعة.

ويظهر جمال التقويم في قدرة الإنسان على تأجيل بعض رغباته من أجل قيمةٍ أسمى. يجوع وهو قادر على الطعام لأنه صائم، ويمنع يده من المال الحرام وهو محتاج، ويكظم غضبه وهو قادر على الانتقام، ويقول الحق مع علمه بكلفته، ويؤثر غيره بشيءٍ يحبه. في كل موقفٍ من هذه المواقف لا تختفي الغريزة، بل تخضع لوعيٍ أعلى؛ وهنا يعلن الإنسان أنه ليس مجرد مجموع حاجات، وأن حريته الحقيقية ليست في طاعة كل دافع، بل في قدرته على اختيار ما يستحق الطاعة.

إن الحيوان لا يُدَمُّ لأنه تبع غريزته؛ فهذا هو نطاق خلقه، أما الإنسان فقد مُنح مساحةٌ يتجاوز فيها الاندفاع المباشر. ولهذا تكون الخيانة قبيحةً، والوفاء جميلاً، والتضحية عظيمةً؛ لأن الإنسان كان يستطيع أن يختار النقيض. إن إمكان الشر نفسه يكشف عن خطورة الحرية التي منحها الله له، لكن جمال الخير يتولد من هذه الحرية؛ فلو كان مكرهاً على الإحسان لما كان لإحسانه هذا الوزن الأخلاقي.

ومن «أحسن تقويم» أن الإنسان قادرٌ على مراجعة نفسه. يستطيع أن يخرج من سطوة اللحظة، وأن ينظر إلى فعله كأنه شاهدٌ عليه، فيندم ويعتذر ويصحح ويبدأ من جديد. وهذه القدرة من أعظم وجوه التكريم؛ فالحيوان يعيش اندفاعه، أما الإنسان فيستطيع أن يحاكم اندفاعه بعد وقوعه. والتوبة ليست إهانةً له، بل استدعاءٌ لأرفع ما فيه؛ إنها تقول له: لست بمجموع أخطائك، ولم يُغلق الطريق لأنك تعثرت، ويمكنك أن تعود إلى الصورة التي أرادها الله لقلبك.

لكن الإنسان قد يرفض هذه المراجعة، لا لأنه عاجز عن معرفة الخطأ، بل لأنه يخشى انكسار الصورة التي صنعها لنفسه. وهنا يتحول العقل من قاضٍ إلى محامٍ عن الهوى؛ يجمع المبررات، ويعيد تسمية الأنانية حقاً، والقسوة حزمًا، والانتقام عدالةً، والرياء دعوةً، والطمع طموحًا. وما أخطر أن يستخدم الإنسان أدوات «أحسن تقويم» في الهرب من مقتضاه؛ فيوظف ذكاهه لتعطيل ضميره، وبيانه لتجميل قبحه، وإرادته للإصرار على سقوطه.

والآية تعيد إلى الإنسان إحساسه بالمسؤولية عن باطنه، لا عن ظاهره وحده. فقد يقيم هيئة الفضيلة ويحمل في داخله شهوة التفوق على الناس، وقد يعطي لينال صورة الكريم، ويزهد ليرى زاهدًا، ويتكلم عن الله ليبني لنفسه مكانًا في قلوب الخلق. إن أعقد أصنام الإنسان هو «أنا» تتخفى في ثياب العبادة؛ ولهذا يحتاج إلى بصيرةٍ مستمرة تفرق بين خدمة الحقيقة واستخدام الحقيقة لخدمة الذات.

ومن تمام التقويم أن الله وهب الإنسان الشعور بالجمال؛ يتأثر بصوتٍ حسن، ومنظرٍ بديع، وعبارةٍ صادقة، وتناسقٍ يلح فيه أثر الحكمة. وليس الجمال ترفًا زائدًا في تكوينه، بل نافذةً يمكن أن تعيده إلى أصل الوجود. غير أن الحس الجمالي إذا انفصل عن الحق قد يعشق الصورة ويغفل عن الجوهر، وقد يُفتن ببلاغة الباطل كما يُفتن بحقيقة الحق. لذلك لا يكفي أن يكون الشيء جميل العرض؛ ينبغي أن يكون صادق المعنى، فكم من قبح أخلاقي لبس ثياب الفن واللغة حتى مر على القلوب في هيئة الفتنة.

وَمُنَحَ الْإِنْسَانَ الْقُدْرَةَ عَلَى الْحُبِّ؛ تِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تَخْرِجُهُ مِنْ انْغِلَاقِهِ عَلَى ذَاتِهِ، وَتَجْعَلُهُ يَحْتَمِلُ وَيُضْحِي وَيَرَى وجوده ممتداً في غيره. لكن الحب نفسه يحتاج إلى تقويم؛ فقد يصير تملُّكاً، أو عصبيةً، أو تعلقاً يزاحم حق الله، أو انحيازاً يعمي عن العدل. والحب في أصفى صورهِ لا يلغِي الحقيقة، بل يقود إليها؛ لا يعني أن تبرر لمن تحب خطأه، بل أن تريده أقرب إلى الخير ولو أغضبه صدقك لحظةً. أما الحب الذي يمنح المحبوب حصانةً من النقد فهو صورة لطيفة من صور الأنانية، لأن صاحبه يحب راحته معه أكثر مما يحب نجاته.

وخلق الله الإنسان اجتماعياً يحتاج إلى غيره، فلا يكتمل وحده ولا يبني الحياة منفرداً. وهذه الحاجة ليست نقصاً مذموماً، بل جزءٌ من حكمة التقويم؛ إذ بها يتعلم التعاون والرحمة والوفاء، وبها ينكسر وهم الاكتفاء الذاتي. فالطفل يبدأ حياته عاجزاً، لا يبقى لحظةً لولا عناية غيره، ثم يكبر وقد ينسى كم من يدٍ حملته، وكم من قلبٍ سهر عليه، وكم من خبرةٍ ورثها من الذين سبقوه. إن الإنسان ثمرة شبكة واسعة من العطاء، ولذلك كان الكبر كذباً على حقيقة تكوينه قبل أن يكون خطيئةً أخلاقيةً.

وكلما تأمل الإنسان نفسه أدرك أن استقلاله محدود؛ هو لا يختار لحظة ميلاده، ولا ملامح وجهه، ولا أول لغة يسمعها، ولا كثيراً من الظروف التي تشكل بدايته، ثم يتحرك داخل المساحة التي منحها الله له. وهذه المساحة كافيةٌ للتكيف، لكنها لا تجعله إلهاً لمصيره. إن «أحسن تقويم» يمنحه الإرادة، لكنه لا يمنحه السيادة المطلقة؛ يختار فعله ولا يضمن نتيجته، يزرع ولا يأمر البذرة بالنمو، يتداوى ولا يخلق الشفاء، يحب ولا يملك بقاء من يحب. وفي هذه الحدود تتربى العبودية: يعمل كأن عليه بذل الوسع، ويتوكل لأنه يعلم أن الأمر بعد ذلك لله.

وقد علّته الآية أن ينظر إلى نفسه بعينين متوازنتين: عين ترى التكريم فلا يحتقر ذاته، وعين ترى العبودية فلا يؤلّها. فإذا رأى نفسه ذليلاً بلا قيمة عطّل مواهبه واستسلم لمن يهينه، وإذا رآها عظيمةً بذاتها استكبر وطغى. أما المؤمن فيعرف أن قيمته من خلق الله وتكريمه، وأن فضله توفيقٌ لا استقلال، وأن قدرته أمانةٌ لا ملكٌ مطلق؛ فيجمع عزّةً تمنعه من الركوع للبشر، وتواضعاً يمنعه من الاستعلاء عليهم.

إن العبودية لله ليست نقيض الكرامة، بل حارسها؛ لأن الإنسان حين يسجد لله وحده يقوم من سجدة حراً أمام ما سواه. لا يستطيع مالٌ أن يشتري قلبه، ولا منصبٌ أن يصادر صوته، ولا جمهورٌ أن يفرض عليه باطلاً يراه حقاً. وكلها صحت عبوديته ضاقت مساحة الخوف في داخله؛ إذ يعرف أن الخلق لا يملكون له نفعاً ولا ضرراً إلا بما أذن الله، وأن الأرزاق والآجال ليست في أيديهم مهما اتسعت أسبابهم.

وفي «أحسن تقويم» بعد حضاري عظيم؛ فالإنسان مهياً للعمران، لا لمجرد البقاء. إنه لا يتكيف مع البيئة فحسب، بل يعيد تشكيلها، ويصنع من الحجر بيتاً، ومن الصوت لغةً، ومن التجربة علماً، ومن القيمة قانوناً. لكنه حين يعمر الأرض من غير أن يعمر نفسه قد يحول المنجز إلى أداة خراب. الحضارة ليست مجموع الأبنية والآلات، بل صورة الإنسان الذي يستخدمها؛ فإن كان عادلاً أصبحت التقنية رحمةً، وإن كان جشعاً جعل منها شبكةً أوسع للاستغلال.

قد تبلغ المدينة ذروة التنظيم بينما يسكنها إنسان ممزق، وتزداد وسائل التواصل بينما تتسع وحشة القلوب، وتتضاعف سرعة الوصول بينما يضع السؤال عن الوجهة. وهذا ليس فشلاً في القدرة التقنية، بل خللٌ في معنى الإنسان. لقد عرف كيف يجعل الأشياء أسرع، ولم يسأل بما يكفي: إلى أين؟ وعرف كيف يزيد الإنتاج، ولم يسأل: لأي حياة؟ وعرف كيف يطيل العمر، ولم يسأل: بأي معنى يمتلئ؟

إن الآية تعيد ترتيب هذه الأسئلة من أساسها؛ فالإنسان ليس أداةً للاقتصاد، ولا رقماً في سوق الاستهلاك، ولا مورداً يُستنفد ثم يُستبدل. كل نظامٍ يجعل قيمة المرء بمقدار إنتاجه وحده يهدر جانباً من «أحسن تقويم»، لأنه يختزل الروح والضمير والحب والعبادة في وظيفة مادية. وقد يعجز الإنسان عن الإنتاج في مرضه أو شيخوخته، لكنه لا يفقد بذلك كرامته؛ فالكرامة هبة الخالق، لا مكافأة المؤسسة.

ومن أرق مظاهر التقويم أن الإنسان يستطيع الرحمة بمن لا ينتظر منه نفعاً؛ يطعم حيواناً، ويحمل طفلاً لا يعرفه، ويمسح دموع غريب، ويتفرق بعاجزٍ لا يملك رد الجليل. في هذه اللحظات يتجاوز قانون المنفعة المباشرة، ويكشف عن نفحة أخلاقية لا تفسرها حسابات الربح وحدها. والرحمة ليست ضعفاً في البنية الإنسانية، بل من ذرى اكتمالها؛ لأن القاسي قد يملك قوة البطش، لكنه فقد القدرة الأرفع: أن يشعر بوجود غيره كما يشعر بوجود نفسه.

ومع ذلك، فالآية لا تقول إن الإنسان محققٌ دائماً لأحسن أحواله، بل تقول إنه خلق في أحسن تقويم. والفرق دقيق وخطير: لقد أعطي الإمكان، لكن عليه أن يحقق مقتضاه؛ ووهب الاستعداد، لكن عليه أن يحفظه؛ ورُسمت في فطرته جهة العلو، لكنه يستطيع أن يمشي عكسها. إن الخَلقة الرفيعة بداية الامتحان لا نهايته، ولذلك ستأتي الآية التالية كصدمةٍ تفتح تحت القمة هاويةً:

فما بين الآيتين مسافةٌ لا تقاس بالأمتار، بل بالاختيارات. قد يبقى الإنسان في المكان نفسه، بالجسد نفسه، والاسم نفسه، لكنه ينتقل في ميزان الحقيقة من مقام التكريم إلى دركات السقوط. يحمل العقل ثم يعطله، والضمير ثم يسكته، واللسان ثم يكذب به، واليد ثم يبطش بها، والقلب ثم يملؤه بالكبر؛ فيجعل من النعم التي كان ينبغي أن ترفعه سلام يهبط بها.

ولذلك فإن التأمل في «أحسن تقويم» لا ينبغي أن ينتهي بالإعجاب بالنفس، بل بالخوف على الأمانة. كل موهبة سؤال، وكل قدرة امتحان، وكل باب فتح لك مسؤولية. الذكي لا يسأل عن ذكائه فقط، بل عما خدم به؛ والغني لا يسأل عن مقدار ما جمع، بل عن الطريق الذي جمع منه والوجه الذي أنفق فيه؛ وصاحب الكلمة لا يسأل عن جمال عبارته وحده، بل عن الحق الذي نصرته أو الباطل الذي زينته.

إن الإنسان قد يفتن بما أودع الله فيه فينسب الفضل إلى نفسه، كأن العقل الذي يفكر به صنعة يده، وكأن الصوت الذي يتكلم به ملك لا ينقطع، وكأن الفرص التي وجدها كانت حقاً لازماً لا تقديراً إلهياً. وهنا يتحول التكريم إلى حجاب؛ يرى النعمة ولا يرى المنعم، ويبصر «أحسن تقويم» وينسى «خَلَقْنَا». والكلمة الأولى التي تصحح وعيه ليست «الإنسان»، بل ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أنت عظيمٌ لأن الله أحسن خلقك، وضعيفٌ لأنك لا تستقل عنه لحظة، ومكرمٌ لأن فضله سبقك، ومسؤولٌ لأن نعمته أقامت عليك الحجة.

وإذا استقرت هذه الحقيقة في القلب تغيرت علاقة الإنسان بنفسه وبالآخرين. لن يحتقر نفسه لأنه يعلم من خلقها، ولن يعبدها لأنه يعلم أنها مخلوقة؛ لن يحتقر الناس لأنهم جميعاً من أصل التكريم، ولن يساوي بينهم في الفضل الأخلاقي لأن أعمالهم واختياراتهم تتفاوت. سيحترم الإنسان لكونه إنساناً، ويقاوم ظلمه لكون الظلم انحرافاً عن إنسانيته، ويرجوه الهداية من غير أن يبرر باطله.

وتحول التربية في ضوء الآية من عملية حشو للمعلومات إلى رعاية لـ «أحسن تقويم» كي يظهر أثره. ليست مهمة المربي أن يصنع الطفل من عدم، بل أن يعين ما أودعه الله فيه من فطرة وعقل وإرادة على النضج، وأن يفتح له أبواب السؤال من غير أن يتركه فريسة الضياع، وأن يهذب حريته من غير أن يسحق شخصيته. فالإنسان لا يُبنى بالإهانة؛ والإذلال المتكرر قد يصنع جسداً مطيعاً لكنه يهدم الروح التي تحمل المسؤولية.

كم من إنسان هبطت ثقته بنفسه لأن صوتاً قاسياً أقنعه منذ طفولته أنه لا يصلح لشيء، وكم من موهبة دُفنت لأن المجتمع لم يعرف إلا قالباً واحداً للنجاح! تأتي الآية لتقول لكل من سُحقت قيمته تحت أحكام البشر: إن ميزانهم ليس خالقك، وإن فشلك في باب لا يعني أنك خلقت بلا معنى، وإن عليك أن تبحث عن الأمانة الخاصة التي وضعها الله في مساحتك، لا عن صورة الآخرين التي يطلبون منك تقليدها.

لكنها تقول له في الوقت نفسه: لا تجعل جرحك عذراً دائماً لتعطيل مسؤوليتك؛ فقد لا تكون مسؤولاً عما فعل بك، لكنك مسؤول - في حدود قدرتك - عما ستفعله بما بقي فيك. لا تسمح لمن آذاك أن يواصل صياغة مستقبلك من مكانه في الماضي، ولا تجعل ظلم الآخرين يتحول إلى إذن بأن تظلم نفسك. من «أحسن تقويم» أنك تستطيع، بعون الله، أن تعيد بناء ما هُدم، وأن تحول الندبة من موضع نجل إلى شاهد نجاة.

والآية تمنح الشيخوخة معنى يتجاوز تغير الجسد؛ فإذا كان بعض المفسرين قد رأى في الرد إلى أسفل سافلين إشارةً إلى الهرم وضعف العمر، فإن «أحسن تقويم» يظل مذكراً بأن قيمة الإنسان لا تنتهي حين تضعف قواه. قد تنخي القامة بعد اعتدالها، وتختف الذاكرة بعد توقدها، وتحتاج اليد التي كانت تعطي إلى من يحملها، لكن صاحبها لا يصير أقل استحقاقاً للرحمة والوفاء. والمجتمع الذي يلقي بكباره عند هامش الحياة لأنه لم يعد يرى فيهم منفعةً مادية يكشف عن هبوطه هو، لا عن هبوط قيمتهم.

إن الشيخ الكبير يحمل في صمته طبقاتٍ من الزمن لا نراها، وكان يوماً طفلاً يحلم، وشاباً يسعى، ویداً تبني، وقبلًا يخاف ويرجو. وحين تعجز جوارحه يجيء امتحان الجيل الذي بعده: هل يرد الجميل، أم يعبد القوة فلا يرى إلا من يملكها؟ إن رعاية الضعيف ليست إحساناً إليه وحده، بل إنقاذٌ للقوي من وحشية القوة.

وهكذا تمتد دلالة الآية من الفرد إلى المجتمع، ومن الجسد إلى الروح، ومن أصل الخِلقة إلى غاية الحضارة. إنها دستورٌ مختصر في فهم الإنسان: مخلوقٌ لا إله، مكرمٌ لا مهان، مختارٌ لا مطلق، عاقلٌ يحتاج إلى الوحي، ذو جسدٍ لا يجوز احتقاره، وذو روحٍ لا يجوز تجويعها، قادرٌ على الخير وقابلٌ للشر، يحمل في نفسه مشروع عروجٍ وهاوية سقوط.

وعند هذه الحافة تقف السورة بنا. لقد رفعت الإنسان حتى رأى عظمة المنحة، لا لتتركه مخوراً بالإعجاب، بل لتريه عمق الهاوية التي قد يتردى إليها. إن السقوط من القمة أشد ظهوراً، وضياح الشيء النفيس أفدح من ضياح الشيء الحقير. ولو لم يكن الإنسان مخلوقاً في أحسن تقويم، لما كان هبوطه إلى أسفل سافلين بهذه المأساة.

فالآية التالية ليست انتقالاً غريباً من المدح إلى الذم، بل كشفٌ للوجه الآخر من الحرية: إن الذي يستطيع أن يعلو يستطيع أن يهبط، والذي يملك أن يختار الإيمان يملك أن يجحد، والذي يستطيع أن يجعل حياته أمانةً يستطيع أن يحولها إلى خيانة. وهنا يبدأ السؤال المرير: كيف ينحدر المخلوق المكرم من مقامه؟ كيف تتحول أدوات النور إلى آلات ظلام؟ وكيف يفقد الإنسان إنسانيته وهو لا يزال محتفظاً بصورته؟

ذلك هو المشهد الذي تفتحه الآية التالية:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

الفصل الخامس

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ: حِينَ يَهِيْطُ الْإِنْسَانُ مِنْ قِيَّةِ التَّكْرِيمِ إِلَى هَاوِيَةِ التَّبْدِيدِ

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

لا تكاد النفس تفرغ من تلقي البشارة المهيبة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، حتى تفاجئها الآية التالية بانحدارٍ حادٍّ من أعلى القمة إلى أعماق القاع: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. وبين «أحسن» و«أسفل» تنفتح قصة الإنسان كلها؛ ذلك الكائن الذي لم يمنحه الله مقامًا جامدًا لا يتغير، بل أعطاه استعدادًا للعلو وحريةً يمكن أن يصون بها هذا الاستعداد أو يبدده، فجعل كرامته أمانةً، لا امتيازًا منفصلًا عن المسؤولية.

وقد تنوعت أقوال المفسرين في المراد بـ«أسفل سافلين»؛ فقليل: هو الرد إلى أرذل العمر، حيث ينتقل الإنسان بعد القوة إلى الضعف، وبعد استقامة القامة إلى انحنائها، وبعد اتقاد الذاكرة إلى وهنها؛ وقيل: هو الرد إلى النار والدرك الأسفل جزاء الكفر والانحراف؛ وقيل: هو الهبوط المعنوي والأخلاقي حين ينقلب الإنسان عن فطرته ويعطل ما أودعه الله فيه من قوى الهداية. وهذه المعاني لا ينبغي أن تُلط من غير تمييز، غير أن بناء السورة يسمح لنا أن نرى بينها صلاتٍ عميقة: فهناك هبوط الجسد الذي يجري بسنن العمر ولا يذم صاحبه عليه، وهناك هبوط الإرادة الذي يصنعه الإنسان باختياره، ثم هناك هبوط الجزاء الذي يكون عاقبةً عادلةً لذلك الاختيار.

وإذا كان المقصود الرد إلى أرذل العمر، فإن الآية تهز في الإنسان وهم القوة الدائمة؛ فالجسد الذي جاء إلى الحياة في ضعف، ثم اشتد واستوى، لا يملك أن يحتفظ بذروة شبابه إلى الأبد. اليد التي كانت تحمل قد تحتاج إلى من يحملها، والعين التي كانت تنفحص الحروف قد تبحث عن الضوء فلا تجده، والذاكرة التي خزنت الأسماء والوجوه قد تتساقط منها التفاصيل كما تتساقط أوراق شجرة أدركها الخريف. وليس في ذلك إهانة للإنسان، بل تذكيرٌ بحدود الجسد، وكشفٌ لوهم الاستقلال الذي يتضخم في أيام القوة.

إن الشيخوخة لا تسلب الإنسان كرامته، لكنها تسلب الغرور حجته. تقول للقوي: هذه العضلات وديعة، ولجمال: هذه النظارة عابرة، ولصاحب الذاكرة: ما تحفظه اليوم قد تبحث عنه غداً فلا تجده، وللمتكبر بخطواته: ستأتي - إن امتد بك العمر - أيامٌ تحسب فيها المسافة القصيرة سफراً. وما دام الإنسان يعرف هذه النهاية الجسدية، فكيف يجعل مرحلة عابرةً من القوة أصلاً للاستعلاء على غيره؟ وكيف يهين ضعيفاً وهو يسير، وإن لم يشعر، إلى ضعفٍ يشبه ضعفه؟

غير أن «أسفل سافلين» لا يمكن أن تُقرأ بوصفها تغيراً جسدياً فحسب من غير أن نصغي إلى السياق الأخلاقي للسورة؛ فالاستثناء التالي: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يفتح الدلالة بقوة على معنى المصير المتصل بالإيمان والعمل. ومن هنا يبرز الهبوط الحقيقي: ليس أن ينحني الظهر، بل أن ينحني الضمير؛ وليس أن تضعف اليد، بل أن تقوى على الظلم؛ وليس أن ينسى العقل بعض الأسماء، بل أن ينسى الله والحساب والغاية وهو ما يزال في تمام قدرته.

قد يشيخ الجسد ويزداد القلب نضجاً ونوراً، وقد يبقى الجسد فتياً بينما تشيخ الروح قبل أوانها؛ تفقد دهشتها ورحمتها وقدرتها على التوبة، وتحول إلى أرضٍ قاحلة لا ينبت فيها إلا الطمع والضعينة. لذلك لا يذم القرآن ضعف العمر لذاته، وإنما يكشف به عن حقيقة المخلوق، أما السقوط المذموم فهو أن يعطل الإنسان باختياره أسباب رفعت، فيرد نفسه عن طريق الهداية بعد أن مُنح القدرة على سلوكه.

وما أشد وقع كلمة ﴿رَدَدْنَاهُ﴾؛ فهي تشعر بالحركة إلى الوراء، وبخسارة المقام الذي كان مهياً له. لم يبدأ الإنسان في أسفل سافلين، بل بدأ في أحسن تقويم؛ ولذلك كان هبوطه خسارة لا طبيعة أصلية. الشر ليس جوهره الذي لا يملك الانفكاك عنه، والخطيئة ليست قدره الذي أكره عليه؛ لقد خُلق مستعداً للمعرفة والإيمان والعمل، ثم قد يطمس استعداداه بما يكرر من خيارات. وكل معصية يُصر عليها الإنسان لا تبقى فعلاً خارجياً ينقضي، بل تترك في النفس أثراً، حتى تصير الأفعال المتكررة عادات، والعادات أخلاقاً، والأخلاق ملامح باطنة قد يصعب على صاحبها أن يرى قبحها.

إن الهبوط لا يحدث غالباً في لحظة واحدة مدوية؛ قلباً يستيقظ الإنسان فيقرر أن يهدم ضميره كاملاً. إنما يبدأ بتنازلٍ صغير يبرره، ثم بتنازلٍ آخر يسكت عنه، ثم يعتاد الصورة التي كان ينفر منها، حتى يصبح القبيح عادياً، ثم يصبح العادي حقاً مكتسباً يدافع عنه. وهكذا لا يصل الإنسان إلى «أسفل سافلين» بقفزة واحدة، بل بسُلّمٍ من الأعذار، كل درجة فيه تبدو قليلة الخطر حتى يجتمع القليل إلى القليل فيكتشف - إن بقي فيه ضوءٌ للاكتشاف - أنه ابتعد كثيراً عن بدايته.

أول الهبوط أن يفقد الإنسان حساسيته تجاه الخطأ؛ فالقلب الحي يتألم إذا زلّ، لا لأنه معصوم، بل لأنه يعرف جهة العلو. أما القلب الذي تثابعت عليه الغفلة فإنه لا يكتفي بأن يعصي، بل يفقد الإحساس بأنه عصي، وربما سخر ممن يذكره، ورأى في حياء المتقين سداجةً، وفي عفتهم عجزاً، وفي أمانتهم ضعفاً عن اغتنام الفرص. وحين تنقلب أسماء القيم في وعيه يكون الهبوط قد تجاوز الفعل إلى الميزان الذي يحاكم الأفعال.

والإنسان لا يسقط حين يخطئ ثم يتوب؛ فالخطأ من طبيعة ضعفه، والتوبة من خصائص تكريمه. إنما يبدأ السقوط العميق حين يتصالح مع الخطأ، ويقيم له داخل عقله فلسفةً، ويمنع النور من أن يسميه باسمه. فالمنزب المنكسر أقرب إلى النجاة من المتكبر الذي يلبس ذنبه ثوب الفضيلة؛ لأن الأول ما يزال يحتفظ بالميزان وإن خالفه، أما الثاني فقد عبث بالميزان نفسه كيلا يشعر بثقل ما يحمل.

وحين يتكرر التبرير يتحول العقل - وهو من أجلّ مظاهر «أحسن تقويم» - إلى أداة للانحدار. بدل أن يكشف الهوى يصوغ له الحجج، وبدل أن يقود الإرادة إلى الحق يصبح خادماً بارعاً لرغباتها. وليس أخطر على الإنسان من عقلٍ قوي في قلبٍ فاسد؛ فالقدرة على التفكير لا تعصم من الشر، بل قد تمنحه أدواتٍ أشد تعقيداً. اللص البسيط يسرق مالاً، أما العقل المنحرف فقد يبني نظاماً يجعل السرقة قانوناً، ويسمي نهب الضعفاء تنميةً، ويصور الاستبداد ضرورةً، ويمنع الحرب القدرة لغةً نظيفة لا يظهر فيها الدم.

وهنا نفهم أن «أسفل سافلين» ليست بالضرورة عودةً إلى الحيوان؛ فالإنسان حين يخرف لا يصير حيواناً، لأن الحيوان لم يُمنح ميزانه ولا يُذم لاتباع غريزته، بل قد يصنع الإنسان بشره ما لا يصنعه وحش. الحيوان يقتل لحاجةٍ محدودة، أما الإنسان فقد يقتل من أجل فكرةٍ متكبرة، أو لذة السيطرة، أو توسيع ثروةٍ لا يحتاج إليها؛ والحيوان لا يبني سجنًا لتعذيب أبناء جنسه كي ينتزع منهم مدح جلاده، ولا يكتب بياناً يبرر به المذبحة. إن سقوط الإنسان أشد فظاعةً لأنه يستخدم خصائص التكريم ذاتها في إنتاج الشر.

يستخدم اللغة التي مُنحها للبيان فيصنع بها الكذب، ويستخدم الذاكرة التي تحفظ العبرة فيعيد بها تغذية الأحقاد، ويستخدم الخيال الذي يبني المستقبل فيبتكر أساليب السيطرة، ويستخدم التنظيم الذي يعمر الأرض ليجعل الظلم مؤسسةً. وبذلك لا يفقد مواهبه عند السقوط، بل قد يحتفظ بها كاملةً ويوجهها إلى الجهة المعاكسة؛ فتظل الآلة متقنة، لكن اليد الأخلاقية التي تديرها فاسدة.

ومن صور الهبوط أن يختزل الإنسان نفسه في جسده، مع أن الله خلقه في تركيبٍ تتعاقب فيه حاجات الأرض وأشواق الروح. فإذا أصبحت اللذة الغاية الأخيرة، تحول العقل إلى خادمٍ لجمعها، وتحولت العلاقات إلى وسائل للاستهلاك، وفقد الآخر حرمة فصار مجرد جسد أو منفعة أو رقم. وحين لا يرى الإنسان في نفسه إلا رغباته، لا يرى في الآخرين إلا قدرتهم على إشباعها، فتذبل الرحمة؛ لأن الرحمة لا تنمو إلا حين نعترف بأن للآخر عالماً داخلياً وكرامةً لا تختصرها حاجتنا إليه.

وقد يهبط الإنسان من طريق المال؛ لا لأن المال شرٌّ في ذاته، بل لأنه يكشف مركز القلب. المال نعمةٌ إذا بقي في اليد، ومحنةٌ إذا صعد إلى موضع الغاية، وخادمٌ نافع إذا وُضع في مكانه، وسيدٌ قاسٍ إذا سيطر على الضمير. يبدأ الإنسان بجمع المال ليعيش، ثم قد ينقلب الأمر فيعيش ليجمع، ويضحى بعمره وصحته وعلاقاته من أجل رقمٍ لا يمنحه طمأنينةً بقدر ما يضاعف خوفه من النقص.

وكلما ازداد امتلاكه ربما ازداد شعوره بالفقر؛ لأن الحاجة المادية لها حد، أما شهوة التملك فلا حد لها. وهنا يكون الهبوط في صورة الصعود: تزداد الأرصادة ويقل الإنسان، تتسع البيوت وتضيق الروح، تتكاثر وسائل الراحة ويغيب السكون. إن «أسفل سافلين» لا يعني دائماً انهيار المظهر؛ فقد يكون صاحبه نابحاً في عيون السوق، نفخ الصورة، محاطاً بالإعجاب، بينما قد خسر في داخله القدرة على الاكتفاء والرحمة والصدق.

وقد يهبط من طريق السلطة؛ فالقدرة على التأثير امتحانٌ يكشف الخبايا التي كان العجز يسترها. كم من إنسانٍ بدا متواضعاً لأنه لم يجد من يطيع أمره، فلها أُعطي سلطةً صغيرةً ظهر طاغيته الكامن! يصير اختلاف الناس معه إهانةً، ونصحهم تمرداً، وحقوقهم منحةً يتفضل بها عليهم. ويبدأ في توسيع ذاته حتى لا يرى حدوداً بين مصلحته ومصلحة الجماعة، فيسمي بقاءه بقاءً للمشروع، ويجعل نقده عدواناً على الحق نفسه.

والسلطة التي لا تُذكر صاحبها بأنه عبدٌ سرعان ما توهمه أنه فوق العباد. من هنا كان الإيمان سياجاً للقوة؛ لا يمنعها من الفعل، بل يمنعها من التآله، ويقول لصاحبها: إن الذين تراهم تحت يدك ليسوا مادةً لمجدك، وإن الله الذي أقدرك عليهم قادرٌ عليك، وإن أشد لحظات امتحانك ليست حين تعجز، بل حين تستطيع أن تظلم ثم تختار العدل.

وقد يهبط الإنسان من طريق الجماعة؛ يذيب ضميره في جمهورٍ يمنحه هويةً جاهزة، فيفرح بما يفرحون به ولو كان ظلمًا، ويكره من يكرهونه ولو لم يعرفه، ويردد حكمهم كيلا يخسر دفء الانتماء. وفي الجماعة قد يرتكب الفرد ما كان يستحي أن يرتكبه وحده؛ لأن المسؤولية تتوزع حتى يتوهم الجميع أن أحداً لا يحملها. غير أن الله يحشر الناس أفراداً، ويسأل كل نفسٍ عما كسبت؛ فلا يخلص الإنسان من تبعة الباطل لأن أصواتاً كثيرةً كانت تهتف به.

إن «أحسن تقويم» يعني أن للفرد عقلاً وضميراً، فلا يليق به أن يؤجرهما للجموع. وليس الاستقلال أن يرفض كل ما تقوله الجماعة، فذلك لونٌ معاكس من التبعية، بل أن يزن القول بالحق، ويملك شجاعة الموافقة حين تصيب والمخالفة حين تنحرف. وقد يكون أشق الصدق أن تقول لمن تحب: أخطأتم؛ لأن مخالفة الخصم لا تكلف الإنسان شيئاً من انتمائه، أما مخالفة القريب فتختبر إخلاصه للحقيقة.

ومن الهبوط أن يتحول الدين نفسه إلى أداةٍ للذات. يتحدث الإنسان باسم الله ليحصل على منزلةٍ بين الناس، ويستخدم المقدس لتأمين نفوذه، ويزن الولاء للحق بمقدار الولاء لشخصه. وهذه من أعمق دركات السقوط، لأن صاحبها لا يعصي الله بشهوةٍ مكشوفةٍ فحسب، بل يجعل اسم الله ستاراً لشهوته. وقد يكون صاحباً بالمواعظ، كثير الحديث عن الآخرة، بينما بنى داخل قلبه عرشاً يريد للناس أن يطوفوا حوله.

إن أقبح الأصنام ليس دائماً حجراً منصوباً، فقد يكون ذاتاً متضخمةً تتغذى من المدح الديني. وكلما اقترب الإنسان من ساحات الخير احتاج إلى مراقبة نيته أكثر، لأن النفس تستطيع أن تستثمر حتى العبادة في بناء مجدها. ورب كلمة حق أريد بها أن يقال ما أبلغ قائلها، ورب دمةٍ في الخلوة كانت أصدق عند الله من خطبةٍ هزت جمهوراً ثم هزها الرياء من أساسها.

ومن الهبوط أيضاً أن يفقد الإنسان قدرته على رؤية غيره. الأنانية ليست مجرد حب النفس، فحب النفس فطري ويمكن تهذيبه، وإنما هي أن تصبح الذات مقياس الوجود كله؛ فما وافق رغبتها حق، وما خالف راحتها باطل، وآلام الآخرين صغيرة لأنها لا تقع في جسدها. وحين ينغلق الإنسان على نفسه تضرع إنسانيته؛ لأن «أحسن تقويم» لا يتحقق في العزلة الأخلاقية، بل في القدرة على الاعتراف بوجود الآخر وحقه ووجعه.

وقد يقسو القلب بالتدريج حتى يرى مشاهد الألم أرقاماً باردة. يسمع عن موت جماعاتٍ فلا يتحرك فيه شيء، لا لأن الحزن يجب أن يسحقه في كل لحظة، بل لأنه صنف الضحايا خارج دائرة من يستحقون شعوره. وهنا تكون العنصرية قد وصلت إلى القلب قبل أن تتحول إلى قانون؛ فقد بدأ الهبوط حين قسم البشر إلى دمٍ عزيز ودمٍ رخيص، وطفل يهز العالم موته وطفل يمحي من الصورة كأنه لم يكن.

وسورة التين، إذ تعلن خلق الإنسان في أحسن تقويم، لا تسمح بأن يُسلب أحد إنسانيته لتبرير ظلمه. فالخصومة لا تلغي الكرامة، والخلاف لا يبيح الكذب، والعدالة لا تتجزأ بحسب الهوية. ومن أعظم امتحانات الإنسان أن يعدل مع من يبغض؛ لأن العدل مع المحبوب قد يتداخل مع الميل، أما العدل مع الخصم فهو شاهدٌ على أن المبدأ أعلى من الانفعال.

ومن الهبوط أن يعيش الإنسان على سطح نفسه فلا يسألها عن شيء. يملأ يومه بالضجيج كيلا يسمع الفراغ في داخله، ويتنقل بين الشاشات والأخبار والوجوه حتى لا يبقى له وقتٌ يواجه فيه السؤال: ماذا أفعل بعمرى؟ قد يكون انشغاله المستمر صورةً من صور الهرب، فليس كل امتلاء غنى، ولا كل حركة حياة. أحياناً يركض الإنسان لأنه يخشى أن يقف؛ إذ لو وقف لحظةً لرأى أن الطريق الذي يستهلك قوته لا يقوده إلى الغاية التي تستحق.

والغفلة ليست نقصاً في المعلومات، بل غياباً عن المعنى. قد يعرف الإنسان تفاصيل العالم كلها ويجهل نفسه، ويتابع كل حدثٍ بعيدٍ ويغيب عن الانهيار الهادئ في قلبه، ويستطيع الحديث عن مصائر الأمم ولا يملك جواباً صادقاً عن مصيره. الغافل ليس من لا يرى الأشياء، بل من يراها ولا يرى دلالتها؛ يرى الجنازات ولا يتذكر رحيله، ويرى تبدل الأحوال ولا يدرك زوال حاله، وتأتيه الآيات من كل جانب فيستهلكها كأخبار.

ومن أسفل السقوط أن يفقد الإنسان الرجاء؛ لأن اليأس حكمٌ على رحمة الله بحدود عجزه هو. قد تكثر خطاياهم، ويبتعد، ويكرر السقوط حتى يظن أن طريق العودة لم يعد يليق به؛ فتأتيه النفس أو الشيطان بمنطقي خبيث: ما دمت لم تكن صالحاً كاملاً فلا تحاول. وهكذا يستخدم شعوره بالذنب لإدامة الذنب، مع أن الندم كان ينبغي أن يكون أول خطوة إلى النجاة.

إن القرآن لا يفتح للإنسان باب الغرور، لكنه لا يسمح له أن يجعل خطيئته أقوى من رحمة الله. ما دام القلب يميز قبح السقوط ويحن إلى العلو، فما تزال فيه بقيةٌ من نور «أحسن تقويم». والإنسان لا يخرج من القاع بإنكار أنه سقط، ولا بالاستلقاء فيه متباكياً، بل بالاعتراف ثم التوبة ثم العمل الذي يبرهن أن الاعتراف لم يكن لحظة شعور عابرة.

وقد يكون أخطر ما في القاع أن يألفه صاحبه؛ فالذي يتألم من الظلمة ما يزال يتذكر الضوء، أما الذي يزين عتمته ويخاصم كل نافذة فقد أصبح إنقاذه أشق. لذلك كان من رحمة الله أن يبقى في النفس ونز الضمير، وأن يجعل للمعصية مرارة لا تزول تماماً. هذا الألم ليس عدواً دائماً؛ قد يكون رسولاً داخلياً يقول للإنسان: لم تُخلق لهذا، وإن صورتك الحالية لا تساوي حقيقتك الممكنة، وإن فيك بقايا تعرف الطريق.

لكن الضمير إذا لم يُستجب له قد يضعف صوته؛ فالإنسان يعيد تشكيل نفسه بأفعاله. في المرة الأولى يرتجف، وفي الثانية يتردد، وفي الثالثة يبرر، ثم يأتي يوم يرتكب فيه الفعل نفسه بهدوءٍ كامل. ليس لأن القبيح صار جميلاً، بل لأن مرآته الداخلية غطتها طبقات الغبار. ومن هنا كانت المبادرة بالتوبة حفظاً لأداة الرؤية قبل أن تكون محواً للفعل؛ فكل تأخيرٍ قد لا يزيد عدد الخطايا وحده، بل يقلل القدرة على رؤيتها.

وتأتي «ثم» في مطلع الآية لتدل على الترتيب مع التراخي، ولتوحي بأن بين التقويم والهبوط مسافةً كان يمكن للإنسان أن يملأها بالشكر والإيمان. لم يُرد مباشرةً إلى القاع من غير حجة، بل عاش في عالمٍ تتابع فيه الدلالات، وأُرسل إليه الرسل، وأُعطي من العمر ما يتذكر فيه من تذكر. لكن مرور الزمن لا يصنع النجاة وحده؛ فقد يكون العمر الطويل حقلاً يتكاثر فيه الخير، وقد يكون مساحةً يتكاثر فيها الإعراض.

إن الزمن لا يأخذ الإنسان إلى الله تلقائياً؛ كل يومٍ يقرب جسده من الأجل، لكنه قد يقرب قلبه أو يبعده. وهذه من أعجب مفارقات الحياة: الجميع يتحركون نحو الموت بسرعةٍ واحدة، لكنهم لا يتحركون نحو المعنى في جهةٍ واحدة. هناك من يصغر ما بقي من عمره ويكبر وعيه، وهناك من تتراكم سنواته وتظل نفسه في طفولة الأناثية؛ تريد ولا تشبع، تغضب إذا مُنعت، وتظن أن العالم خلق لخدمتها.

أما «أسفل» بصيغة التفضيل فتدل على غاية الانخفاض، و«سافلين» تجمع صور الانحدار ودركاته؛ فكأن الإنسان لا يسقط في فراغ متجانس، بل ينزل بين مراتب من الخسران، حتى يبلغ من الضعة ما يناقض أصل تكريمه. وإذا أصر على تكذيب الحق وتحويل نعم الله إلى أدوات لمعاداته، كان جزاؤه في الآخرة متناسباً مع الطريق الذي اختاره؛ فالنار ليست ظلماً يلحق بخلق بريء، بل خاتمة عادلة لمسار استنفد صاحبه دلائل الرحمة وأبواب الرجوع.

وهنا تتجلى خطورة الحرية: الله لم يخلق الإنسان شريراً ثم يعاقبه على ما جبل عليه، بل خلقه في أحسن تقويم، وأراه النجدين، وأرسل إليه الهداية، وفتح له التوبة، ثم كان المصير ثمرة الاختيار. إن عدالة الجزاء مبنية على وفرة المحبة؛ ولهذا سبقت مواطن الوحي في صدر السورة تقرير الخلق والمصير. التين والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين: ذاكرة متصلة من الرسالات تشهد أن الإنسان لم يترك وحده في الطريق.

وفي الآية إنذار للحضارات كما هو إنذار للأفراد. فالحضارة قد تكون في «أحسن تقويم» من حيث التنظيم والمعرفة والقوة، ثم ترد أخلاقياً إلى أسفل سافلين حين تجعل الإنسان وقوداً لمصالحها. قد تتحدث عن الحقوق وهي تمول الإبادة، وعن الحرية وهي تدعم المستبد، وعن السلام وهي تصنع السلاح، وعن كرامة الإنسان وهي تقيس دمه بجنسيته ولونه وقيمه في السوق. وليس التقدم التقني برهاناً على الرقي الإنساني؛ فقد تتطور أدوات القتل بينما يتخلف الضمير الذي يقرر استخدامها.

والأمة كذلك قد تحمل كُتَاباً يهدي إلى العدل ثم تمارس الظلم، وتكثر فيها الخطب عن الأخوة بينما تمزقها العصبيات، وتعزّز بتاريخها حتى يحولها الاعتزاز عن صناعة حاضرٍ يليق به. التاريخ لا يمنح أبناءه حصانةً من السقوط؛ بل قد يصبح حجاباً إذا اكتفوا بأجداد الآباء عن واجبات الأحياء. ليس السؤال: من كان أسلافكم؟ بل: ماذا صنعتم أنتم بالأمانة التي وصلت إليكم؟

إن أسفل السافلين يبدأ أحياناً من اللحظة التي يتوقف فيها الإنسان عن نقد نفسه؛ يظن أن انتماءه إلى الحق يعني أن أفعاله كلها حق، وأن خصومة أهل الباطل له تجعل كل ما يصدر عنه صواباً. لكن الانتساب إلى المبدأ لا يعصم صاحبه من مخالفته، وقد يدافع الإنسان عن قضية عادلة بطريقةٍ ظالمة، فيصيب في عنوانه ويخطئ في أخلاقه. والقرآن لا يريد منتصرين للشعار فقط، بل شهوداً للقيمة التي يدل عليها الشعار.

ويظل في الآية، على شدة إنذارها، بابٌ خفي من الرجاء؛ فهي حين تذكر الإنسان بأنه هبط، تذكره ضمناً بأن له مقاماً أعلى. من يعرف القاع يستطيع أن يتطلع إلى القمة، ومن يرى الفرق بين ما هو عليه وما خلق له تبدأ في نفسه حركة العودة. ولو كان الانحدار قدراً مغلقاً لما جاء الاستثناء بعده:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

تأتي «إلا» كأنها يدٌ من نور تمتد فوق الهاوية، وتعلن أن السقوط ليس مصيراً محتوماً لكل إنسان، وأن ضعف الجسد لا يعني ضياع الروح، وأن مرور العمر لا يلتهم ثمار المؤمن، وأن الطريق إلى النجاة واضحٌ في أصله: إيمانٌ يعيد القلب إلى مركزه، وعملٌ صالحٌ يرد الجوارح إلى وظيفتها.

فإذا كان الزمن يرد الجسد من قوته إلى ضعفه، فإن الإيمان يحفظ للعمل معناه وأجره؛ وإذا كانت الخطيئة تهبط بالإنسان، فإن التوبة والعمل الصالح يعيدان وجهته؛ وإذا كانت النار أسفل مصير المكذابين، فإن الذين آمنوا لا يدخلون هذا الرد، بل ينتظرهم ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وهكذا لا تتركنا السورة في القاع، وإنما ترينا عمقه كي نعرف قيمة الجبل الممتد إلينا.

إن النجاة ليست أمنية غائمة، ولا ادعاءً يقال باللسان ثم تظل الحياة في مسارها القديم، إنها بناءٌ ذو ركنين لا ينفصلان: حقيقةٌ تسكن القلب، وصلاحٌ يتحرك في الواقع. وهذا هو الأفق الذي ستفتحه الآية التالية، حين تكشف أن الإيمان ليس مجرد تصديق نظري، وأن العمل الصالح ليس حركةً بلا روح، بل كلاهما معاً طريق الإنسان إلى استرداد مقامه، وحفظ ثمرته من الضياع، والدخول في عطاءٍ لا ينقطع:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

الفصل السادس

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ: حِينَ يَحْفَظُ الْإِيمَانُ جَوْهَرَ الْإِنْسَانِ مِنَ السَّقُوطِ

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

تأتي ﴿إِلَّا﴾ بعد ظلمة ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ كنافذة فتحت فجأة في جدارٍ كثيف، وكيدٍ رحيمه تمتد إلى الإنسان عند حافة الهاوية، لتقول له إن السقوط - على فداحته - ليس المصير الوحيد، وإن الطريق الذي يهبط فيه كثيرون لا يبتلع بالضرورة كل من وُلد على هذه الأرض. هناك من يحفظون الأمانة، ويصونون جوهر «أحسن تقويم»، ويعبرون تقلبات العمر من غير أن تُفسد الأيام أصلهم؛ لأن قلوبهم اتصلت بالإيمان، وحولت جوارحهم ذلك الإيمان إلى عمل صالح، فصاروا خارجين من قانون الخسران، داخلين في وعدٍ لا ينفد.

إن الاستثناء القرآني لا يقوم على النسب، ولا العرق، ولا المكانة، ولا الصورة، ولا مجرد الانتساب اللفظي إلى جماعة المؤمنين؛ إنه يقوم على حقيقتين متعانتين: ﴿آمَنُوا﴾ و﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. قلبٌ عرف فاستقر، وحياءٌ تحركت فاستقامت؛ باطنٌ امتلأ باليقين، وظاهرٌ صدق ذلك اليقين بالموقف. فلا الإيمان في القرآن فكرة باردة تسكن العقل ولا تمس الطريق، ولا العمل الصالح حركةً منفصلة عن أصلها، وإنما هما روحٌ وجسد، وجذرٌ وثمره، ونورٌ في الداخل وأثرٌ لهذا النور في العالم.

ولفظه ﴿آمَنُوا﴾ تحمل في أصلها معنى الأمن؛ فالإيمان ليس مجرد امتلاك معلومة عن وجود الله، بل دخول القلب في أمان معرفته، واستقراره إلى الحقيقة التي ترد الأشياء المتناثرة إلى مركزٍ واحد. المؤمن لا يعني أنه لا يخاف ولا يحزن ولا تضيق به الأسباب؛ فتلك أحوال الطبيعة البشرية، وإنما يعني أن وراء خوفه يقيناً، وتحت حزنه أرضاً لا تنهار، وفي قلب ضيقه نافذة إلى رب لا تضيق قدرته. قد تهتز حياته، لكن أصل المعنى فيها لا يسقط؛ لأنه يعلم ممن جاء، ولماذا يعيش، وإلى من يعود.

ومن دون الإيمان يعيش الإنسان موزعاً بين آلهة صغيرة، وإن لم يسمها آلهة: رأي الناس، وحب المال، وشهوة البقاء، وصورة الذات، وخوف المستقبل. لكل واحد منها نصيبٌ من قلبه، وكل واحد يطالبه بقرбан؛ فيضحى براحته كي يحفظ صورته، وبصدقه كي يحفظ مصلحته، وبضميره كي يرضي جماعته، ويعيش بين مطالب متعارضة لا تجتمع. فإذا آمن بالله وحده أعاد ترتيب مركزه؛ لم تختف حاجاته، لكنها نزلت من مقام الآلهة إلى مقام الأسباب، وصار يملكها بدل أن تملكه.

فالإيمان تحريراً قبل أن يكون تكليفاً؛ يحرر الإنسان من عبودية ما يخافه ويرجوه من دون الله، ويحرره من أن يجعل قيمته مرهونةً بتصفيق الناس. من عرف أن الله يراه لم يعد مضطراً إلى تمثيل الفضيلة أمام كل عين، ومن عرف أن رزقه بيد الله لم يبع حقاً من أجل باب رزق، ومن عرف أن الأجل مكتوب لم يجعل الحفاظ على الحياة ذريعةً لقتل معنى الحياة.

لكن الإيمان ليس ادعاءً طمأنينةً دائمة، فقد تأتي على المؤمن ساعاتٌ يضطرب فيها قلبه، ويحتاج إلى أن يجدد صلته بالله. اليقين ليس حجراً ساكناً لا يتأثر، بل حياةٌ تحتاج إلى غذاء؛ ينمو بالذكر، والنظر في الآيات، والصلاة، وصدق التوكل، ومجاهدة الشبهة والشهوة، ويضعف بالغفلة وإن بقي أصله. ولهذا عبر القرآن بالفعل ﴿أَمْنُوا﴾؛ فالإيمان حدثٌ وقع في القلب، لكنه يظل محتاجاً إلى تجديد آثاره في كل اختيار.

وقد يظن المرء أنه مؤمن لأن كلمة الإيمان مألوفة على لسانه، حتى تأتي لحظة الامتحان فتكشف موقعها الحقيقي في قلبه. عند الخسارة يظهر هل كان يعبد الله أم يعبد العطاء، وعند القدرة يظهر هل كان عادلاً لضعفه أم لوجه الله، وعند الوحدة يظهر هل كان يترك الخطأ حياً من الناس أم خشيةً من ربه. الابتلاء لا يخلق كل ما في النفس، بل يكشف كثيراً مما كان مستتراً فيها؛ كالمطر لا يصنع البذور في الأرض، لكنه يظهر ما كانت تحبئه.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بحكمته ورحمته وعلمه وعدله، من غير أن يحيط المخلوق بحقيقة ربه؛ فالله سبحانه **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**، ولا تقيسه العقول بمقاييس مخلوقاته. والمؤمن قد لا يفهم الحكمة التفصيلية من كل ما يجري، لكنه لا يجعل ضيق معرفته حكماً على كمال الله. يعرف أن المشهد الذي يراه جزءٌ من كتابٍ لم تُفتح له كل صفحاته، وأن القدر لا يُفهم دائماً من منتصفه، وأن ما يبدو في اللحظة فقدماً محضاً قد يفتح في العمر أبواباً لم يكن القلب ليراها من طريقٍ آخر.

وهذا اليقين لا يدعو إلى الاستسلام السلبي للظلم أو تعطيل الأسباب؛ فالإيمان بالقدر ليس تبريراً للبغي، كما أن التوكل ليس إجازةً للكسل. موسى الذي أيقن أن الله معه سار إلى فرعون، والنبي صلى الله عليه وسلم الذي وثق بنصر ربه أخذ بأسباب الهجرة، ورتب الطريق، واستعان بالخبير. المؤمن يعمل بكل ما يستطيع، لكنه لا يعبد استطاعته؛ يبذل السبب، ويعلم أن السبب لا يستقل بصنع النتيجة.

ثم تأتي الحقيقة الثانية: **﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾**. لم تقل الآية: «إلا الذين آمنوا» ثم تقف، لأن الإيمان الذي لا يغير شيئاً في صاحبه يحتاج إلى أن يسأل عن صدقه. فالنور إذا دخل بيتاً ظهر من نوافذه، والماء إذا وصل إلى الجذر ظهر في اخضرار الأغصان؛ وكذلك الإيمان إذا استقر في القلب وجد طريقه إلى اللسان واليد والعين والمال والعلاقة والموقف. ليس معنى هذا أن المؤمن يصير كاملاً لا يخطئ، بل أن لإيمانه اتجاهًا غالباً، وأنه كلما زلّ رده أصل الإيمان إلى طريق التوبة والإصلاح.

ولفظ «الصلح» واسعٌ يجمع كل عملٍ صح قصده ووافق هدي الله ونفع صاحبه أو خلقه. الصلاة عمل صالح، والعدل عمل صالح، وإطعام الجائع عمل صالح، وإتقان الصنعة عمل صالح، وصدق الكلمة عمل صالح، وكف الأذى عمل صالح، وإصلاح ذات البين عمل صالح، والرفق بالضعيف عمل صالح، وإزالة الفساد عمل صالح. فالدين لا يحبس الصلاح في الشعائر مع أنها قلب الطريق، بل يجعل أثر العبادة ممتداً إلى كل مساحة يتحرك فيها الإنسان.

إن الصلاة التي لا تترك أثراً في أمانة صاحبها تحتاج إلى مراجعة، والصيام الذي لا يهذب اللسان لم يبلغ ثمرته كاملة، والحج الذي يعود منه المرء بالقسوة نفسها لم يسمح لمعناه أن يعبر إلى القلب. ليست الشعائر بديلاً عن الأخلاق، ولا الأخلاق بديلاً عن الشعائر؛ الأولى تبني الصلة بالله، والثانية تكشف أثر تلك الصلة في الخلق. ومن العبث أن يفصل الإنسان بين حق الله وحقوق عباده، ثم يتوهم أن كثرة النوافل تحو ظملاً يصر عليه من غير توبة ولا رد للمظالم.

وقد وصفت الأعمال بـ«الصالحات» لأن الصلاح نقيض الفساد، فهو ما استقام في ذاته وأصلح في أثره. ليس كل نشاطٍ عملاً صالحاً، ولو بذل صاحبه فيه جهداً كبيراً؛ فقد يتعب الإنسان في صناعة الشر، وينظم الباطل بإتقان، ويخلص لجماعةٍ فاسدة. قيمة العمل لا تأتي من المشقة وحدها، بل من وجهته وموافقته للحق. ورب خطوةٍ يسيرة عظمت عند الله بصدقها، ورب مشروعٍ ضخم سقط لأن أساسه كان رياءً أو ظملاً.

و«الصالحات» جاءت جمعاً؛ لأن الخير ليس باباً واحداً، والناس تتنوع قدراتهم ومساحاتهم. قد يعجز أحدهم عن مالٍ ينفقه، لكنه يملك كلمةً ترفع منكسراً؛ وقد لا يستطيع آخر أن يغير واقعاً واسعاً، لكنه يستطيع ألا يشارك في فساد؛ وقد لا يعرفه الناس بعملٍ ظاهر، بينما يقاوم في خلوته شهوةً لا يعلمها إلا الله. إن أبواب الصلاح أكثر من أن يحكرها نموذجٌ واحد، ورحمة الله أوسع من أن يجعل الطريق إليه مقصوراً على أصحاب القدرات الكبرى.

قد يكون العمل الصالح في موقفٍ ما أن نتكلم، وفي موقفٍ آخر أن تصمت؛ أن نتقدم حين يكون التقدم نصرةً للحق، وأن نتأخر حين يكون الظهور نصرةً للنفس. ليس الصلاح هيئةً واحدة تُنسخ في كل الظروف، بل فقهٌ بالمقصد والوسيلة والنتيجة. ولهذا يحتاج المؤمن مع الحماسة إلى بصيرة؛ فكم من إنسان أراد الخير فاستعجل طريقه، أو نصر حقاً بطريقةٍ أفسدت أكثر مما أصلحت.

والعمل الصالح يبدأ أحياناً من مناطق لا يراها الناس. أن تنزع حسداً من قلبك عمل، وأن ترد نيتك إلى الإخلاص عمل، وأن تمنع نفسك من التشفي بخصمٍ أصابته مصيبة عمل، وأن تراجع حكماً جائراً كنت قد بنيت على إشاعة عمل. ليست معارك الإنسان كلها في الساحات؛ بعضها يدور في أعماقه حيث لا جمهور ولا كاميرات، وقد تكون هزيمة هوى واحد في الخلوة أعظم في ميزان الله من انتصاراتٍ صاحبة صنعها الرغبة في الشهرة.

ومن أجمل الصالحات أن يصلح الإنسان ما أفسده. فالتوبة ليست كلمة استغفار تُقال ثم تُترك الجراح في مواضعها؛ من كسر خاطراً يطلب الصفح، ومن أخذ حقاً يرده، ومن نشر كذباً يصححه، ومن أفسد علاقةً يسعى في ترميمها. إن الله يغفر ما بين العبد وبينه لمن صدق في توبته، لكن صدق التوبة من حقوق الناس يظهر في ردها أو طلب التحلل منها بحسب الاستطاعة والحكمة.

والإصلاح أشق من الندم؛ لأن الندم شعورٌ قد يبقى محصوراً داخل الذات، أما الإصلاح فيقتضي تواضعاً يخرج إلى من أسيء إليه. كثيرون يحبون صورة التائب في أنفسهم، لكنهم لا يريدون كلفة الاعتراف؛ فيحتفظون بعزة زائفة على حساب حق غيرهم. إلا أن «أحسن تقويم» لا يستعاد بمجرد التأثر، بل بشجاعة تحمل المسؤولية.

والعمل الصالح يحفظ الإنسان من التآكل الداخلي؛ لأن الخير لا ينفع المتلقي وحده، بل يعيد تشكيل فاعله. حين يصدق المرء مرةً يقوِّي عضلة الصدق في نفسه، وحين يكظم الغيظ تتسع قدرته على التحكم، وحين يعطي يقاوم شحّه، وحين يعدل مع خصمه يكسر سلطة الهوى. كل حسنةٍ لبنة في بناء الإنسان، كما أن كل خطيئة يصر عليها شقٌّ في هذا البناء.

وهكذا نفهم أن الأعمال لا تقع خارج الذات ثم تنتهي، بل تعود إليها وتشارك في صياغتها. الإنسان يعمل العمل، ثم يعمل العمل فيه؛ يقول الكذبة، ثم تجعله الكذبة أكثر استعداداً للكذب، أو يقول الصدق تحت الضغط، فيصنع الصدق داخله شجاعةً جديدة. ومن هنا كانت الأخلاق مساراً تراكمياً؛ لا يولد الصادق كامل الصدق، لكنه يصير إليه باختياراتٍ متكررة، ولا يهبط الفاسد إلى قاعه دفعةً واحدة، بل يتشكل سقوطه بما داوم عليه.

وجمعُ الإيمان والعمل الصالح يمنع انحرافين متقابلين: انحراف الروحانية المنعزلة التي تستمتع بمشاعرها ولا تحمل هم إصلاح الواقع، وانحراف الحركية الجافة التي تنشغل بالمنجز وتنسى قلبها. فالأول قد يبكي في الدعاء ثم يمر بالمظلوم فلا يتحرك، والثاني قد يعمل للناس حتى يتحول الناس إلى غايته فيفقد صلته بالله. أما المنهج القرآني فيصنع قلباً يصلي ويداً تعمّر، روحاً تتعبد وضميراً يقاوم الظلم.

إن الإيمان هو الذي يمنح العمل أفقه الأبدى؛ فالمؤمن لا يفعل الخير لأن الناس يضمنون له الاعتراف، بل لأن الله لا يضيع عملاً. وقد يزرع بذرةً لا يعيش حتى يرى شجرتها، ويقول كلمةً لا يعرف من تلقاها، ويدفع ظلماً من غير أن يذكر أحد اسمه. هذا التحرر من الحاجة إلى الثناء يجعل عمله أصلب؛ فالذي يعمل للجمهور يتوقف حين يغيب الجمهور، والذي يعمل لله يستطيع أن يواصل في الظل.

لكن ذلك لا يعني أن المؤمن لا يفرح بتقدير الناس، فهذا ميلٌ إنساني، وإنما لا يجعل التقدير شرطاً لاستمرار الحق. إذا شكر حمد الله، وإذا جُحد فضله لم يندم على المعروف، لأنه لم يكن صفةً بينه وبين البشر. ومن أنضج مراتب الإحسان أن تفعل الجميل وأنت تعلم أن بعض من أحسنت إليهم قد ينسونه، ثم لا يتحول نسيانهم إلى ندمٍ على الخير؛ لأن قيمة الخير لا تسقط بسوء ذاكرة المتلقي.

وكم يحتاج الإنسان إلى هذا المعنى في عالم صارت فيه الأعمال مرتبطةً بالعرض؛ فما لا تصوره العدسات كأنه لم يقع، وما لا تجمع له الأرقام كأنه لا قيمة له. وهنا نتعرض النية لخطرٍ خفي: قد يبدأ الإنسان بعمل الخير، ثم يتحول اهتمامه تدريجياً من أثر العمل إلى أثر صورته، ويصبح السؤال: كيف أبدو؟ بدلاً من: ماذا أصلحت؟ إن العمل الصالح لا يشترط الخفاء دائماً، فقد يكون إظهاره قدوةً أو تعليماً، لكن على صاحبه أن يراقب قلبه حتى لا يصبح المحتاج خلفيةً لصناعة مجده الشخصي.

والآية لا تقل: «وعملوا أعمالاً كثيرة»، بل ﴿عَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ فالعبرة بالصالح لا بالضخامة وحدها. قد ينقذ موقفٌ صغير إنساناً من اليأس، وقد تمنع كلمةٌ مكبوتة فتنة، وقد يكون امتناع الموظف عن توقيع ظلمٍ لا يراه الناس من أعظم عمله. الأعمال تُقاس في ميزان الله بما في القلوب وما يترتب عليها من الحق، لا بالضجيج الذي يحيط بها.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. جاءت الفاء لتربط الجزاء بسببه، إيمانٌ وعمل، ثم أجرٌ مضمون بوعد الله. و«لهم» تشعر بالاختصاص والاستحقاق الذي تفضل الله بتقريره؛ ليس لأن العبد يستقل على ربه بحق، فكل طاعته قامت أصلاً بنعمة الله وتوفيقه، بل لأن الله الكريم كتب على نفسه أن يجزي المحسنين، وجعل وعده حقاً لا يتخلف.

أما ﴿أَجْرٌ﴾ فهي كلمة ترد الاعتبار لكل خير ضاع في زحام الدنيا، ولكل تضحية لم يرها أحد، ولكل صبرٍ ظنه صاحبه منسياً. الدنيا ليست دائماً مكان اكتمال الجزاء؛ قد يعيش الظالم مرفهاً ويموت المظلوم قبل أن يرى حقه، وقد يبذل المصلح عمره ثم يحصد غيره الثمرة، وقد يُتهم الصادق ويُصنف للمنافق. لو كانت هذه الحياة هي المحكمة الأخيرة لكان في الوجود جرح أخلاقي لا يندمل، لكن الأجر الآتي يعيد لكل موقف وزنه، ويكشف أن ما بدا ضائعاً كان محفوظاً عند من لا ينسى.

إن الله لا يحتاج إلى سجلٍ خارج علمه، ولا تضيع عنده الأعمال الصغيرة تحت ازدحام الأحداث. الناس يرون النتيجة، والله يعلم النية والطريق والكلفة؛ قد يمدحون شخصاً لأنه نجح ولا يعرفون كم من مظلومٍ وطئه في صعوده، وقد يلومون آخر لأنه لم يحقق النتيجة ولا يعلمون أنه بذل وسعه وأغلق دونه الباب. ميزان الله لا تخدعه الصورة النهائية؛ يزن ما كان في القدرة، وما صدقت به الإرادة، وما وقع من الفعل.

و«غير ممنون» تحتمل معنى غير مقطوع، أي أجرٌ لا ينتهي ولا ينفد؛ وتحتمل معنى غير منقوص، وتفيد كذلك أنه عطاء لا تكدره المنّة التي تؤذي المتلقي. وكل هذه المعاني تتآزر في تصوير كرم الله: عطاءً دائماً، موفور، صافٍ من التنغيص، لا يعقبه خوف الزوال، ولا يُذكر فيه المؤمن بفقره القديم على وجه الإذلال.

وما أشد الفرق بين نعم الدنيا وأجر الآخرة؛ كل لذة هنا يهددها الانقطاع، وكل اجتماع يختبئ في ظله الفراق، وكل صحةٍ تسير نحو التغير، وكل ملكٍ يمكن أن ينتقل إلى غير صاحبه. حتى في لحظة الفرح يمر في أعماق الإنسان خوفٌ خافت من زوالها؛ لأن خبرته بالعالم تعلمه أن الأشياء لا تبقى. أما «غير ممنون» فتخلع من النعمة سمّ الفناء؛ لا موت يقطعها، ولا مرض يفسد مذاقها، ولا قلق يحول بين صاحبها وبين تمام الشعور بها.

وإذا كان من معاني «أسفل سافلين» الرد إلى أرذل العمر، فإن ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ تحمل للمؤمن الكبير في سنه رحمة خاصة؛ فقد تضعف قدرته على الأعمال التي اعتادها، لكن الله لا يضع صدقه السابق، ولا يقطع عنه أجر ما كان يعمل في صحته إذا حبسه العذر. قد يتوقف الجسد، لكن رصيد النية والطريق لا يتوقف؛ فربنا لا يعامل العبد كآلة انتهت منفعتها حين ضعفت، بل يعلم عمر الطاعة، وحنين العاجز إلى ما كان يستطيع.

وهنا يتجلى الفرق بين ميزان الله وميزان المنفعة البشرية. المؤسسات قد تستغني عن المرء حين تقل إنتاجيته، والأسواق قد تخفض قيمته حين يضعف جسده، أما الله فلا يحو تاريخ عبده لأن مرحلة جديدة من العجز دخلت عليه. ذاكرته قد تنسى تسبيحه، لكن الله لا ينسى؛ ولسانه قد يعجز عن تلاوته، لكن الآيات التي عمرت قلبه لم تضع؛ وقد لا يعرف الناس من كان، لكن الله يعرف كل خطوة مشاها إليه.

وفي الوعد بأجر غير ممنون علاج لتعب الانتظار. فالمؤمن قد يطول به الطريق، ويشعر أن جهده لا يغير شيئاً، أو أن الباطل أسرع انتشاراً من الحق؛ فتأتي الآية لتفصل بين قيمة العمل وسرعة نتيجته. أنت مكلفٌ بالصالح في مساحة قدرتك، ولست رباً للنتائج؛ وقد يقدر الله أن ترى الثمرة، وقد يجعل رؤيتها لجيل بعدك، لكن أجرك لا يتوقف على تصفيق الحاضر ولا على اكتمال المشروع في عمرك.

كم من نبي دعا قومه سنواتٍ فلم يؤمن معه إلا قليل، ولم يكن قلة المستجيبين برهاناً على نقص الحق. وكم من صاحب كلمة صادقة مات مجهولاً ثم بعث الله أثرها بعده. إن النجاح في الميزان القرآني ليس عدداً مجرداً، بل وفاءً بالأمانة؛ لأن كثرة الأتباع قد تكون فتنةً، وقلة الناصر لا تجعل الصواب خطأ.

والأجر غير الممنون لا يلغي نصيب المؤمن من الطمأنينة في الدنيا؛ فالإيمان نفسه جزاء عاجل من جهة ما يمنحه للقلب من معنى، والعمل الصالح يورث نوراً وسعةً ولو أحاطت بصاحبه المشقة. لكن هذه الطمأنينة ليست وعداً بحياةٍ خالية من الحزن؛ قد يفقد المؤمن حبيباً، أو يُظلم، أو يمرض، ويشعر بالألم كما يشعر غيره، غير أن الألم لا يصبح تفسيره النهائي للوجود. وراء الدمع يقين، ووراء القبر لقاء، ووراء الظلم محكمة، ووراء العمل أجر.

إن هذه الآية تعيد بناء الإنسان الذي هددته الآية السابقة بالهبوط: الإيمان يصلح مركزه، والعمل الصالح يصلح حركته، والأجر غير الممنون يصلح نظرته إلى المستقبل. فلا يعيش تائه الأصل، ولا فاسد المسار، ولا مذعور النهاية. يعرف ربه، ويعرف واجبه، ويعرف أن الخير محفوظ؛ وهذه المعارف الثلاث تمنحه وحدةً داخلية لا يملكها من تتوزعه الغايات.

ولست النجاة هنا انسحاباً فردياً من العالم؛ فالعمل الصالح بطبيعته يعيد الإنسان إلى العالم مصلحاً فيه. المؤمن لا يقول: ما دام أجري في الآخرة فلا شأن لي بجراح الأرض؛ بل يعلم أن طريق الآخرة يمر من أمانته في الأرض. يعبد الله في المحراب، ثم يعبد في السوق حين يصدق، وفي البيت حين يرحم، وفي المجال العام حين يعدل، وفي لحظة الخسومة حين لا يفجر.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يحفظون أنفسهم وحدها من السقوط، بل يصنعون حولهم مساحاتٍ من العلو. قد يرد صدق شخصٍ واحد جماعةً عن الكذب، وقد تذكّر أمانة موظفٍ مؤسسةً كاملةً بمعنى الواجب، وقد ينقذ قلبٌ رحيم أسرةً من توارث القسوة. الخير معدٍ كما أن الشر معدٍ؛ وكل إنسان يختار الصلاح يرفع قليلاً مستوى العالم الأخلاقي، ولو لم يَرِ المدى الذي بلغه أثره.

إنك قد تبسم لإنسانٍ في يومه الأشد حشّةً، فتعطيّه من غير أن تعلم سبباً جديداً
لاحتمال الحياة؛ وقد تكتب كلمةً صادقةً تصل إلى قلبٍ بعد سنوات، فتحيي فيه ما مات؛
وقد تربي طفلاً على العدل، فيحمل ما زرعتَه إلى عشرات المواقف التي لن تشهدها.
الأعمال الصالحة أوسع من اللحظة التي تقع فيها، لأنها تدخل في شبكةٍ من الآثار لا يحيط بها
إلا الله؛ ولذلك كان أجرها عنده، لا عند علمنا المحدود بنتائجها.

وفي الآية دعوةٌ ألا يؤجل الإنسان صلاحه حتى يصير كاملاً؛ فالكمال البشري المتوهم
قد يكون حيلةً للتعطيل. ابدأ بما تستطيع، أصلح ما بين يديك، وداوم على القليل الذي
يصدق؛ فإن الطريق لا يفتح كله للواقف، وإنما تتكشف مراحله للسائر. وقد يكون أحب
العمل أدومه وإن قل، لأن الدوام يبني النفس، بينما الاندفاع المؤقت يمنحها نشوة البداية
ثم يتركها في انقطاعٍ طويل.

والاستقامة ليست ألا نتعثّر، بل ألا تتخذ العثرة وطناً. المؤمن قد يضعف، لكن الإيمان
يزعجه من قاعه؛ وقد يخطئ، لكن العمل الصالح في بنيته يدفعه إلى إصلاح الخطأ. ليست
علامة الحياة في القلب غياب الجرح، بل قدرته على الالتئام، وليست علامة الإيمان ألا
ينطفئ النور لحظةً، بل أن يبقى في الروح ما يبحث عن الفتيل من جديد.

وهكذا تقيم الآية جسراً بين «أحسن تقويم» و«الأجر غير الممنون». لقد بدأ الإنسان من
منحة الخلق، لكنه لا يصل إلى كمال الجزاء إلا بموقفه من المنحة. ليس الإيمان إضافةً
خارجيةً إلى إنسانيته، بل تحقيقٌ لغايتها؛ وليس العمل الصالح عبئاً مفروضاً على حريته، بل
الطريق الذي يمنع حريته من أن تأكل نفسها. وحين يؤمن ويعمل لا يصير كائناً آخر، بل
يعود إلى أصفى ما أودعه الله فيه.

وبعد أن بينت السورة أصل الخلق، وإمكان السقوط، وطريق النجاة، ودوام الجزاء، تنتقل إلى مواجهة المكذب بالسؤال الذي تسقط أمامه الأعذار:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينِ﴾.

أي شيء يبقى بعد هذه الدلائل ليحملك على إنكار الجزاء؟ لقد رأيت حكمة الخلق، واختلاف طرق البشر، وعدل التمييز بين الإيمان والإعراض، فكيف تتوهم أن تنتهي الرحلة بلا محكمة؟ وكيف يُخلق الإنسان في أحسن تقويم، ويُمنح العقل والضمير والاختيار، ثم لا يُسأل عما صنع؟ وكيف يستوي من حفظ الأمانة بمن بددها، ومن أصلح بمن أفسد، ومن مسح دمعة المظلوم بمن ملأ الأرض دموعاً؟

إن السؤال القادم ليس طلباً لمعلومة يجهلها الله، تعالى عن ذلك، بل محاصرة للإنكار في آخر زواياه، وإقامة للإنسان أمام ضميره بعد أن قامت أمامه شواهد الفطرة والوحي والأخلاق. إنه السؤال الذي يرد قضية الآخرة من مجال التصور البعيد إلى صميم العدالة، ويجعل إنكار الدين إنكاراً لمعنى الإنسان نفسه:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينِ﴾.

الفصل السابع

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ: حِينَ تُحَاصِرُ الْفِطْرَةَ إِنكَارَ الْجَزَاءِ

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾

بعد أن عرضت السورة شواهد الهداية في تاريخ النبوات، وقررت أن الإنسان خلق في أحسن تقويم، وكشفت إمكان هبوطه إلى أسفل سافلين، ثم استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات ووعدتهم بأجرٍ غير ممنون؛ جاءت بهذا السؤال الذي لا يطلب جواباً لفظياً بقدر ما يهز أسس الإنكار في النفس: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾؟

ليس السؤال هنا انتقالاً إلى موضوع جديد، بل هو الثمرة المنطقية والأخلاقية لكل ما سبق. فإذا كان الإنسان مخلوقاً بهذه الدقة، وممنوحاً هذه القدرة على الاختيار، وقادراً على أن يعلو بالإيمان أو يهبط بالمحود؛ فهل يعقل أن ينتهي ذلك كله عند حفرة من التراب، من غير أن يُسأل المحسن عن إحسانه والمفسد عن فساده؟ وهل تكون الحرية أمانةً إن لم يكن وراءها حساب، ويكون الضمير شاهداً إن لم تكن وراء شهادته محكمة، ويكون الظلم قبيحاً في أصل الفطرة ثم ينتهي الظالم والمظلوم إلى المصير نفسه؟

و«الدين» في هذه الآية هو الجزاء والحساب، كما في قول الله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ أي يوم الجزاء الذي تُرد فيه الأعمال إلى أصحابها، وتتكشف فيه الحقائق من غير ستائر الأرض. وليس الدين هنا فكرة بعيدة معلقة في آخر الزمن، بل ميزانٌ يدخل في صميم الحاضر؛ لأن الإنسان يتشكل موقفه من الحياة بحسب تصوره لنهايتها. من ظن أن كل شيء ينتهي بالموت نظر إلى عمره باعتباره الفرصة الوحيدة للأخذ، أما من علم أن وراء الموت لقاءً وحساباً فإنه يرى الحياة أمانةً لا غنيمةً مطلقة.

وقد اختلف أهل التفسير في جهة الخطاب في قوله: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾؛ فقيل: الخطاب للإنسان المكذب، أي
فما الذي يملكك بعد ظهور هذه الحجج على التكذيب يوم الجزاء؟ وقيل: هو خطابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم
بمعنى: فأني شيء يكذبك بعدُ بالجزاء وقد قامت دلائل صدق ما جئت به؟ والمعنى في الحالين يلتقي عند إقامة
الحجة على حقيقة الدين، غير أن خطاب الإنسان مباشرةً يجعل الآية مواجهةً شخصيةً شديدة النفاذ: ماذا بقي لك
من عذر؟ وما الحجة التي تستطيع أن تضعها أمام هذا البناء المحكم؟

ولفظ ﴿فَمَا﴾ يطلب الكشف عن السبب؛ كأن الآية تنتزع التكذيب من ضباب العموم وتضعه تحت
سؤالٍ محدد: لماذا تكذب؟ فالإنكار قد يعيش طويلاً ما دام شعاراً غامضاً، لكنه يضطرب حين يُطالب صاحبه
بتفسيره. أتكذب لأنك درست جميع الحجج فوجدتها باطلة، أم لأن الاعتراف بالحساب سيغير طريقة حياتك؟
أتكذب لأن العقل يقودك إلى الإنكار، أم لأن الشهوة تبحث عن عالم بلا مساءلة؟

كثير من المواقف الفكرية لا تولد في الفكر وحده، بل تشارك في صنعها رغبات النفس
ومخاوفها. قد يبحث الإنسان عن الحجة التي تهديه، وقد يبحث عن الحجة التي تعفيه؛ والفرق بين
الباحثين ليس في الذكاء بالضرورة، بل في صدق الإرادة. من أراد الحق سأل: ماذا يلزمني
إذا ظهر؟ ومن أراد الراحة سأل: كيف أتخلص مما يلزمني؟ وفي السؤالين قد تُستخدم
الأدوات العقلية نفسها، لكن الوجهة الأخلاقية مختلفة.

إن الإيمان بالجزاء ثقیلٌ على النفس التي تريد أن تكون حرةً من كل قيد؛ لأنه يقول لها
إن المحطات لا تبخر، وإن الأبواب المغلقة لا تخفي الحقيقة، وإن القدرة على الإفلات من
قضاء الأرض لا تعني الإفلات من علم السماء. الإنسان الذي بنى راحته على إنكار المساءلة
لا يرفض الآخرة دائماً لأنه لم يفهم أدلتها، بل لأنه فهم بعض مقتضياتها أكثر مما يريد؛
أدرك أنها ستضعه أمام كل حقٍّ ضيعه، وكل قلبٍ كسره، وكل أمانةٍ خانها، فحاول أن
يلغي المحكمة من تصوره بدل أن يصلح ملفه قبل الوقوف فيها.

ومع ذلك، فالقرآن لا يتهم كل متردد بسوء القصد؛ فقد تعرض للإنسان شبهة، أو ينشأ في بيئة تشوّه له صورة الإيمان، أو تؤلمه أسئلة الشر والموت والعدالة. لكن الآية تدعوه ألا يجعل حيرته منزلاً دائماً، وألا يسوّي بين السؤال الصادق والإنكار المريح. السؤال الصادق يمشي بصاحبه، ويطلب الدليل، ويتواضع أمام ما لا يعرف؛ أما التكذيب المتكبر فيقرر النتيجة أولاً، ثم ينتقي من الأسئلة ما يحرسها.

إن ﴿بَعْدُ﴾ كلمةٌ تختزن في داخلها تراكم الحجّة: بعد هذا كله، بعد خلقك في أحسن تقويم، وبعد ما عرفت من قابلية الإنسان للعلو والسقوط، وبعد رسالة الوحي الممتدة من أرض التين والزيتون إلى طور سينين وهذا البلد الأمين، وبعد أن رأيت الإيمان يصنع الصالحات والفساد يصنع الخراب؛ فما الذي يبقى مبرراً لتكذيبك بالدين؟

ليست الحجّة على الآخرة منفصلةً عن الحجّة على الخلق الأول؛ فالذي أنشأ الإنسان من عدم قادرٌ على إعادته. والبعث قد يبدو عجيباً لمن ينظر إلى القبور وينسى الأرحام، ويرى الأجساد بعد فنائها ولا يتأمل كيف بدأت. كل إنسان كان قبل ولادته غائباً عن عالم الشهادة، ثم جمع الله عناصر جسده، ونسج أعضائه في ظلمات الرحم، وأخرجه كائناً يسمع ويبصر ويتكلم. أف تكون النشأة الأولى الممكنة أمام العين أيسر على الله من الإعادة؟ تعالى الله عن أن يعجزه شيء.

وكل نوم يعبر بالإنسان إلى غيابٍ ثم يرده إلى وعيه تذكيراً قريب بمعنى العودة، وكل أرضٍ تموت في فصلٍ ثم تهتز بالحياة في فصلٍ آخر صورةٌ تشهد بأن الموت ليس حاجزاً أمام القدرة الإلهية. ليست هذه الظواهر هي البعث نفسه، لكنها تقرب إمكانه إلى العقل الذي يظن أن ما لم يشهده من قبل مستحيل. والإنسان كثيراً ما يجعل حدود تجربته حدوداً للقدرة، فيقيس ما يستطيع الله بما يألفه هو؛ وهذا خللٌ في أصل النظر، لأن الخالق لا يُقاس بالخلق، والله ليس كمثله شيء.

لكن السورة لا تبني قضية الدين على القدرة وحدها، بل على الحكمة والعدل أيضاً؛ ولذلك ستختم بقولها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾. فالبعث ممكنٌ بقدرة الله، وواقعٌ بوعده، ومقتضىٌ لحكمته وعدله. وإذا كان الله قد خلق الإنسان ذا ضميرٍ أخلاقي، وأرسل الرسل، وأمر ونهى، وجعل للحسن والقبح وزناً، فلا تكون الحكمة أن يسدل الموت الستار قبل اكتمال الجزاء.

في الدنيا تختل صور العدالة كثيراً؛ فقد يموت القاتل على سريرته، ويدفن المقتول ولا يُعرف قبره، وتغيب وثائق الجريمة، ويشترى الغني شهادة الزور، ويفقد الضعيف الدليل. بل قد يكون الظلم أكبر من أن تستوفيه محكمةٌ بشرية؛ فما العقوبة الدنيوية التي تساوي من قتل الآلاف، أو هدم أجيالاً، أو أورث أمةً خوفاً وفقراً؟ ولو عوقب الظالم مرةً واحدةً بالموت، فكيف ترد بهذه العقوبة الواحدة حقوق العدد الذي لا يحصى من ضحاياه؟

هنا لا تعود الآخرة مسألةً تكميليةً في العقيدة، بل ضرورةً لاستقامة المعنى الأخلاقي للوجود. ليست الضرورة بمعنى أن الإنسان يفرض على الله شيئاً، تعالى عن ذلك، بل بمعنى أن حكمة الله التي دل عليها خلقه ووحيه لا تساوي بين المختلفات، وأن عدله الكامل يقتضي ظهور الحقائق واستيفاء الحقوق على الوجه الذي يعلمه هو. إن يوم الدين هو اليوم الذي لا يضيع فيه الألم لأنه لم يُوثق، ولا ينجو فيه الجاني لأنه أحسن صناعة الرواية.

والعجيب أن الإنسان نفسه يحمل في فطرته احتجاجاً على غياب العدالة. حتى الذي ينكر الحساب يغضب إذا ظلم، ويطلب بأن يُنصف، ويرى أن من أساء إليه «يستحق» الجزاء. فمن أين جاءت هذه اللغة الأخلاقية: الحق، والواجب، والاستحقاق؟ لو كان الوجود حركةً ماديةً خاليةً من الغاية، لكان الظلم حدثاً كوقوع حجرٍ على حجرٍ، قد يؤلم، لكنه لا يكون قبيحاً في ذاته. غير أن الإنسان لا يشعر بالألم فقط، بل يشعر بأن ما وقع «لا ينبغي» أن يقع، وهذه الـ«لا ينبغي» نافذةٌ على ميزان يتجاوز المادة.

إن الضمير - على ما قد يلحقه من تشويه - يحمل توقيعاً فطرياً على معنى الدين. حين يفعل الإنسان خيراً في الخفاء ويشعر بنقاءٍ لا يفسره الربح المادي، وحين يخون ولا يعلم به أحد ثم يطارده انقباضٌ داخلي، فإن في أعماقه محكمةً صغيرةً تشير إلى المحكمة الكبرى. قد يستطيع إسكاتها بالاعتیاد، لكنه لا يستطيع تفسير أصل وجودها تفسيراً كاملاً إن جعل الإنسان مجرد كائنٍ يبحث عن منفعته.

وقد يقال إن المجتمعات هي التي صنعت الضمير لتضمن بقاءها؛ ولا شك أن التربية الاجتماعية تؤثر في أشكال الوعي الأخلاقي، وقد تفسده كما تهذبه، لكن هذا لا يفسر كل شيء. فكيف يتردد الإنسان على مجتمعه نفسه باسم العدالة؟ وكيف يرى مجتمعٌ كامل أن الظلم مباح، ثم يقف فردٌ ضعيف في وجهه وهو يعلم أن موقفه سيكلفه سلامته ولا يمنحه منفعةً عاجلة؟ إن في الإنسان قابليةً لمراجعة معيار الجماعة بمعيار أعلى؛ وهذا من آثار «أحسن تقويم» ومن دلائل أنه خُلق لحمل خطابٍ أخلاقي لا لمجرد التكيف.

ويوم الدين يرد للخير المجهول قيمته. كم من أم أفنت صحتها في رعاية أبنائها ثم لم يكتب عنها التاريخ سطرًا، وكم من أب حمل التعب بصمت كيلا يجوع أهله، وكم من إنسان ردّ أمانةً كان يستطيع خيانتها ولم يشكره أحد، وكم من مظلوم عفا وهو قادر على الانتقام، وكم من صالح قاوم ذنبًا في خلوته فلا يعلم بجهاده إلا الله! لو كان الجزاء مرهونًا بذاكرة الناس لضاع أكثر الخير؛ فالناس لا يرون إلا السطح، وينسون سريعًا، وقد يكافئون من يجيد عرض فضيلته أكثر ممن يعيشها.

أما الله فيعلم الحسنات التي لم تجد شاهدًا، والدموع التي مسحها صاحبها قبل أن يراه أحد، والنيات التي لم تستطع أن تتحول إلى أفعال بسبب العجز، والطرق التي بدأها أصحابها وماتوا قبل بلوغها. في يوم الدين لا يحتاج الصادق إلى أن يحسن تسويق نفسه؛ تكفيه شهادة الله الذي علم السريرة قبل الحركة، وعرف مقدار المقاومة التي سبقت الفعل.

كما يرد يوم الدين للمظلوم صوته بعد أن دفتته ضوضاء المنتصر. في الدنيا يكتب الأقوياء أحيانًا رواية الحدث، فيصبح الضحية متهماً، ويُمنح الجلاد ألقاب البطولة، وتُحمى الأسماء من السجلات. لكن يوم الدين لا يعتمد على أرشيف السلطة، ولا يستطيع أحد أن يشتري شاهداً أو يحذف وثيقةً من علم الله. هناك تتساقط اللغة المصنوعة، وتكلم الجوارح، ويظهر الفعل عارياً من شعاراته.

والإيمان بذلك اليوم ليس وقوداً للانتقام الشخصي، بل حمايةً للمظلوم من أن يتحول ألمه إلى نسخة جديدة من الظلم. فهو يعلم أن حقه لا يضيع، فلا يحتاج إلى أن يتجاوز العدل باسم الثأر، ولا يحمل بريئاً جريمة مذنب. العدالة الآتية تضبط غضبه؛ تمنحه يقيناً بحق الموقف من غير أن تسلمه لوحشية الانتقام.

وفي المقابل، يمنع يوم الدين الظالم من الاحتماء بنسيان الزمن. قد تمر الأعوام، ويضعف الشهود، ويُعفى عنه لأسباب السياسة أو المصالح، لكنه لا يستطيع تغيير الحقيقة في علم الله. إن مرور الوقت لا يحول الجريمة إلى فضيلة، ونجاة الجاني من العقوبة العاجلة ليست براءة؛ قد يكون الإمهال باباً للتوبة، وقد يكون استدراجاً، لكنه ليس غياباً عن العلم ولا عجزاً عن الأخذ.

والمؤمن بيوم الدين لا ينتظر الآخرة ليصلح ظلم الدنيا، فإقامة العدل في الأرض من عمله الصالح، لكنه يعرف حدود جهده: عليه أن يدفع الظلم بما يستطيع، ثم لا ينهار إذا بقي من الحقوق ما عجزت الأرض عن استيفائه. الإيمان بالآخرة يمنعه من اليأس من العدالة، كما يمنعه من تأليه أدوات العدالة البشرية؛ فهي ضرورية، لكنها محدودة، تخطئ وتصيب، وتحتاج دائماً إلى ضميرٍ يراجعها.

ويكشف سؤال الآية أن التكذيب بالدين ليس موقفاً من المستقبل وحده؛ إنه يعيد تشكيل الحاضر كله. فإذا اختفى الحساب من الوعي، أصبح السؤال الحاكم: هل أستطيع؟ لا: هل يحق لي؟ ما دام المرء قادراً على الإفلات، فما الذي يمنعه إذا كانت مصلحته هي الميزان النهائي؟ قد تمنعه القوانين أو السمعة أو الخوف، لكنه إذا ضمن الغياب عن العيون وجد نفسه أمام شهوته بلا سقفٍ أعلى.

غير أن المؤمن يستصحب رقابة لا تغيب؛ لا بوصفها سوطاً يحوله إلى كائنٍ مذعور، بل حضوراً يطهر خلوته من الازدواج. يعلم أن الله يراه، فيستوي عنده - بقدر صدقه - الظاهر والباطن، ولا يحتاج إلى شرطيٍّ يقف عند كل باب. وهذه المراقبة أساس أخلاقي عميق؛ فالمجتمع لا يستطيع وضع كاميرا داخل كل ضمير، ولو فعل لصنع سجناً لا فضيلة، أما الإيمان فيبني الحارس في الداخل.

وليس الخوف من الحساب وحده هو الذي يحرك المؤمن؛ إنه يرجو لقاء الله وأجره ورضوانه. فالآخرة ليست محكمةً مرعبةً فقط، بل دار لقاءٍ ووفاءٍ ورحمةٍ، يعود فيها الغريب إلى وطنه الأخير، ويجد الصابر أن كل لحظةٍ موجعة كانت محفوظةً في علم ربه. من اختزل الدين في الخوف وحده حرم القلب من جناح الرجاء، ومن اختزله في الرجاء وحده عطل هيبة المسؤولية؛ وإنما يسير المؤمن بينهما، يرجو فلا يقنط، ويخاف فلا يأمن مكر نفسه.

و﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ سؤالٌ يطارد الإنسان في لحظات قوته وضعفه. حين يقدر على الخيانة ولا يراه أحد، تسأله الآية: أتظن أن الفعل يضيع؟ وحين يُظلم ولا يجد ناصراً، تقول له: أتظن أن الحق يُنسى؟ وحين يرى الموت يأخذ من يحب، تفتح أمامه المعنى: أهذه نهاية العلاقة، أم أن وراء الغياب لقاءً يعيد الله فيه الأرواح إلى حياةٍ لا فراق بعدها؟

الإيمان بالبعث لا يلغي حزن الفقد، لكنه ينقذه من العبث. يبكي المؤمن لأن القلب خلق يحب، ولأن الفراق موجد، لكنه لا يرى القبر آلةً عدمٍ تطحن كل معنى؛ يراه باباً غامضاً إلى عالمٍ أخبر الله عنه، فيحزن من غير أن ينكر، ويشتاق من غير أن ييأس. والفرق بين الحزن واليأس أن الحزن اعترافٌ بقيمة ما فقد، أما اليأس فحكمٌ بأن الفقد هو الكلمة الأخيرة.

وقد جاءت الآية بصيغة المواجهة المفردة: ﴿يُكَذِّبُكَ﴾، كأنها تستخرج الفرد من حماية الجمع، وتضعه وحده أمام السؤال. فقد يختبئ الإنسان داخل بيئته: هكذا يفكر الناس، وهكذا وجدنا العالم، وهكذا تقول الثقافة السائدة. لكن الحقيقة لا تُقاس بعدد المصدقين، والموت سيخرج كل فردٍ من الجموع التي كان يحتمي بها؛ سيدخل قبره وحده، وبيعت وحده، ويقف بعمله لا بضجيج الجمهور.

ما الذي يكذبك أنت؟ لا ما الذي يردده المحيطون بك، ولا ما الذي يوحي به سلوك الغافلين. إن تكرار الإنكار لا يصيره برهاناً، كما أن كثرة السائرين في طريق لا تضمن سلامة نهايته. وكرامة العقل تقتضي أن يسأل الإنسان بنفسه، وأن يميز بين الحقيقة والشيوع؛ فقد تكون الفكرة مألوفةً لأنها صادقة، وقد تكون مألوفةً لأن الناس كرروها طويلاً من غير فحص.

وتأتي كلمة ﴿بَعْدُ﴾ لتسد باب التسويف المعرفي كذلك. كم من إنسانٍ يقول: سأفكر في المصير لاحقاً، حين أفرغ من العمل، وحين تستقر حياتي، وحين أكبر. لكنه لا يضمن أن يمنحه الزمن الموعد الذي يؤجله إليه؛ والموت لا يستأذن اكتمال الخطط. إن قضية الدين ليست سؤالاً يليق بفراغ الشيخوخة فقط، بل السؤال الذي يحدد معنى الشباب والعمل والحب والمال منذ البداية.

من عرف النهاية أعاد ترتيب الطريق، ومن جهلها قد يستهلك عمره في تحسين مقعدٍ داخل قطارٍ لا يعرف وجهته. ليست الحكمة أن تنجح في وسائل الحياة ثم تعجز عن تفسير غايتها، وأن تعرف كيف تزيد دخلك ولا تعرف ماذا تزيد في نفسك، وأن تبني صورةً طويلة الأثر في ذاكرة الناس ثم تغفل عن موقعك في ميزان الله.

والسؤال لا يطلب من الإنسان أن يصدق بلا بصيرة؛ فالقرآن نفسه أقام قبله سلسلةً من الدلائل: دلائل الخلق، والوحي، والفطرة، والأخلاق، واختلاف المصائر. الإيمان ليس قفزةً في فراغ، بل استجابةً للنور حين تجتمع شواهد. ومع ذلك سيبقى فيه معنى التسليم؛ لأن العقل يصل إلى الباب، لكنه لا يحيط بكل ما وراءه. يخبره الوحي بتفاصيل الغيب التي لا تستقل التجربة بكشفها، فيصدقها لصدق الخبر ودلالة المعجزة، لا لأنها صارت جميعاً مشهودةً لحواسه.

إن الذي يطالب بأن يرى الآخرة قبل أن يؤمن بها يطلب إلغاء طبيعة الامتحان؛ فلو انكشفت الغيوب انكشف المحسوس، وصار الحساب حاضراً للعين في كل لحظة، لضاعت مساحة الاختيار التي يظهر فيها صدق القلب. لكن الله لم يترك الإنسان من غير علامة؛ أعطاه من الآيات ما يكفي للهداية، وأبقى من الحجاب ما يبقي للإيمان قيمته.

وفي نهاية هذا السؤال تقف النفس أمام احتمالين: إما أن يكون الوجود بلا حكمةٍ نهائية، فيصبح العقل والضمير والرسالة والعدل صرخاتٍ عابرةً داخل صمت المادة؛ وإما أن يكون لهذا كله ربٌّ حكيم جمع الإنسان للحساب، فلا تضيع قيمة ولا يستوي طريقتان. وسورة التين لا تترك الاحتمالين متكافئين؛ فقد بدأت بشواهد الحكمة في الخلق والوحي، ثم ختمت بسؤال يعلن الجواب في بنيته: ليس هناك ما يبرر التكذيب بالدين بعد قيام هذه الآيات.

لكن السورة لا تترك الجواب معلقاً في ضمير الإنسان وحده، بل تنتقل إلى الحقيقة الحاسمة التي تستقر عندها كل الأسئلة:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾.

ذلك هو الختام الذي يجمع السورة كلها في ميزان الحكمة: الذي أحسن تقويم الإنسان لا يتركه للعبث، والذي ميزه بالعقل والاختيار لا يسوي بين وفائه وخيائته، والذي وعد المؤمنين بأجرٍ غير ممنون لا يخلف وعده، والذي يعلم سعي البشر لا يضيع عنده حق. فإذا استقر أن الله أحكم الحاكمين، استقر أن الخلق حكمة، والتكليف حكمة، والابتلاء حكمة، والبعث حكمة، والجزاء عدلٌ تام، وإن خفي عن الإنسان في دنياه بعض وجوه الحكمة وتفصيلها.

وهنا يصبح السؤال الأخير جواباً وملجأً وميزاناً، لا مجرد تقرير عقدي؛ ففي عالم تتكاثر فيه أحكام البشر الناقصة، ويرتفع فيه الباطل حيناً، ويُساء فهم الصادق، يرد المؤمن قلبه إلى الحكم الذي لا يضل ولا ينسى:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾.

الفصل الثامن

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ: حِينَ يَسْتَقِرُّ الْوُجُودُ فِي مِيزَانِ الْحِكْمَةِ

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾

تنتهي سورة التين بسؤال لا ينتظر من القلب المؤمن إلا أن يجيب: بلى، والله، إن الله لأحكم الحاكمين. غير أن السؤال القرآني أوسع من أن يكون طلباً لإجابة يرددها اللسان؛ إنه يريد أن يعيد ترتيب نظرة الإنسان إلى الخلق والحياة والابتلاء والمصير، وأن يضع كل ما مر في السورة تحت سقف حقيقة واحدة: ما دام الله أحكم الحاكمين، فإن الإنسان لم يُخلق عبثاً، ولم يُمنح «أحسن تقويم» سدى، ولم تُرسل إليه الرسالات بلا غاية، ولم يُفتح أمامه طريقا العلو والسقوط من غير حساب، ولن يضيع إيمانه وعمله الصالح، ولن يختلط في المحكمة الأخيرة حقُّ باطل أو محسنٌ بمسيء.

لقد بدأت السورة بقسم استدعى مواطن الوحي والبركة، ثم انتقلت إلى خلق الإنسان، ثم إلى سقوطه ونجاته، ثم إلى الدين والجزاء؛ وها هي تحتم باسم الحكمة والحكم، لتكشف أن الخط الواصل بين هذه المعاني جميعاً ليس مصادفةً ولا تفككاً، بل تقديرٌ إلهي محكم. فالثمرتان في موضعهما، والطور في موضعه، والبلد الأمين في موضعه، والإنسان في مقام التكليف، والجزاء في نهاية الرحلة؛ وكل ذلك قائمٌ في علم من لا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يضع أمراً في غير موضعه.

والحكم في أصله يتصل بالمنع والفصل والإحكام؛ فالحاكم يفصل بين المتنازعين، والحكمة تمنع صاحبها من السفه وتضع الأمور في مواضعها. وإذا كان الله ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾، فحكمه كامل في علمه، كامل في عدله، كامل في رحمته، لا تشوبه شهوة ولا مصلحة ولا جهل ولا نسيان. يحكم البشر بما ظهر لهم، وقد تخدعهم الشهادة، أو تنقصهم الوثيقة، أو تميل بهم القربة، أو ترهبهم القوة؛ أما الله فيعلم الظاهر والباطن، ويعلم الفعل ونيته، ويعلم الكلمة والجرح الذي أحدثته، ويعلم المظلمة وإن محا الجاني آثارها من سجلات الأرض.

والمقارنة بين حكم الله وأحكام البشر لا تعني إسقاط ضرورة القضاء والعدل في الدنيا؛ فقد أمر الله بإقامة الحق، وجعل الحكم بين الناس أمانة ثقيلة. لكنها تمنع الإنسان من تأليه حكم بشري أو ظن أنه يستوعب الحقيقة كلها. قد يبرئ القضاء مجرماً لعجز الدليل، أو يدين بريئاً لشهادة زور، وقد ينصف بعد زمنٍ طويل من الظلم؛ ولذلك تبقى المحكمة الإلهية حاجة لا تستغني عنها العدالة، لا لنقص أصل الشريعة، بل لنقص من يطبقها وحدود العلم البشري.

إن الشريرون الفعل في لحظته، لكن الله يراه داخل شبكة أسبابه وآثاره. قد يسرق اثنان المقدار نفسه، لكن أحدهما نشأ في بيئةٍ دفعت به إلى حافة الهلاك ثم تاب ورد الحق، والآخر سرق من فائض القوة استهانةً بالناس؛ ولا يجعل ذلك الحرام حلالاً، لكنه يكشف أن الحكم الكامل يحتاج إلى علم لا يحيط به بشر. والله وحده يعلم مقدار ما قاوم الإنسان قبل أن يسقط، ومقدار ما صدق حين عاد، ومقدار ما كان يستطيع أن يفعل فلم يفعل.

وهذا العلم الكامل لا يثير خوف المؤمن وحده، بل يمنحه طمأنينة عميقة؛ لأنه يعني أن الله لن يسيء فهمه. كم يعاني الإنسان حين يُحاكم على صورةٍ مبتورة، أو تُؤخذ كلمته خارج سياقها، أو تُنسب إليه نية لم تخطر بقلبه! قد يشرح فلا يُصدق، ويعتذر فلا يُفهم، ويظل أسير روايةٍ صنعها عنه من لا يعرف إلا قشرة الواقعة. أما عند الله فلا يحتاج إلى أن ينقذ حقيقته من سوء التأويل؛ إذ يعلم الله سره قبل أن يصوغ دفاعه، ويعرف صدقه وإن عجز لسانه عن البيان.

لكن هذا العزاء يحمل إنذاراً مقابلاً؛ فكما أن الله يعلم براءة من أُسيء فهمه، يعلم زيف من أحسن تمثيل الصلاح. يستطيع الإنسان أن يصنع لنفسه صورةً نقيةً أمام الناس، وأن ينتقي من حياته ما يعرضه، وأن يغطي غرضه الخاص بلغةٍ سامية؛ لكنه لا يستطيع أن يدخل التمثيل على علم الله. وهنا تسقط قيمة السمعة إذا انفصلت عن الحقيقة؛ فقد يجتمع لك مدح الأرض كله وتكون خالي اليدين في السماء، وقد يسيء الناس ظنهم بك ويعرف الله فيك من الصدق ما ينجيك.

﴿أَحْكَمْ الْخَاصِمِينَ﴾ صيغةٌ ترد كمال الحكم إلى الله وحده؛ فكل حكمةٍ عند البشر محدودة، وكل عدلٍ يقيموه أثرٌ مما هداهم الله إليه، وكل قانونٍ صالح يحتاج إلى مراجعةٍ وتطبيقٍ وأمانة. الإنسان يختار غالباً بين خياراتٍ ناقصة، وقد يعرف الحق ولا يملك إنفاذه، وقد يريد العدل فتغلبه أهواؤه؛ أما الله فلا يعجزه تنفيذ ما حكم، ولا يطرأ على علمه جديد، ولا يحتاج إلى قوةٍ خارجةٍ عن ملكه.

ومن حكمة الله أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، لا في صورة عاجزة عن حمل التكليف، ومن حكمته أنه لم يجعله ملاكاً مجبراً على الطاعة؛ لأن المقصود أن يظهر صدقه في الاختيار. لقد منحه قابلية الإيمان والكفر، والخير والشر، ثم لم يتركه بلا بيان؛ أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ونصب دلائل الفطرة والكون، وفتح باب التوبة، وجعل للحسنة ثواباً وللسيئة جزاء. فكل مرحلة في قصة الإنسان قائمة على الحكمة: القدرة قبل التكليف، والبيان قبل الحساب، والإمهال قبل الجزاء.

وقد يتساءل الإنسان: لماذا خلق قادراً على الهبوط إلى أسفل سافلين؟ ألم يكن من الممكن أن يُخلق لا يعرف إلا الخير؟ والجواب أن كائنًا لا يستطيع إلا الخير لا يحمل المعنى نفسه الذي يحمله إنسان دعت شهوته إلى الشر ثم اختار الحق. لا يكون الصبر صبراً من غير ألم يستدعي الجزع، ولا تكون العفة عفة من غير شهوة، ولا تكون الشجاعة شجاعة من غير خوف، ولا يكون العفو عفواً من غير قدرة على الانتقام. إن القيم الأخلاقية تنشأ في مساحة الاختيار، ولا تظهر عظمة الروح إلا حين توجد قوة معاكسة ثم تنتصر عليها.

ولا يعني هذا أن الشر مطلوب لذاته أو محبوب عند الله؛ فالظلم ممقوت، والله لا يحب الفساد، لكنه سبحانه شاء أن يخلق الإنسان مختاراً، وأن يجعل الدنيا دار ابتلاء، ثم يحاسب كل نفس على ما اكتسبت. والإنسان لا يملك أن يتخذ سر الحكمة ذريعة لتبرير شره؛ فإمكان المعصية جزء من الامتحان، أما فعلها فاختياره الذي يسأل عنه.

ومن حكمة الله أن جعل الحياة محدودة بالموت؛ فلو امتد عمر الظالم إلى ما لا نهاية له، ولم تغلق عليه لحظة الاختبار، لاتسع شره بلا حد. الموت يوقف القدرة الأرضية، ويسقط من اليد مفاتيح الملك، ويخرج الجبار من قصره كما يخرج الفقير من كوخه: بلا ألقاب ولا حرس ولا مال. إنه الحد الذي يعلن أن الإنسان - مهما اتسع نفوذه - لم يكن سيد الزمن.

والموت حكمةٌ كذلك لأنه يمنح اللحظة قيمتها. لو كان العمر في الدنيا بلا نهاية، لأمكن تأجيل كل توبةٍ وخير ولقاء؛ أما محدودية الوقت فتجعل الاختيار جاداً. نحن نحب لأن اللقاء ليس أبدياً هنا، ونعتذر لأن الغد ليس مضموناً، ونسارع إلى المعروف لأن الفرصة قد تغلق. الزمن الذاهب ليس نقصاً محضاً؛ إنه الوعاء الذي تنضج فيه المسؤولية.

لكن النفس قد ترى بعض الأقدار فلا تدرك وجه حكمتها؛ طفلٌ يموت، وصالحٌ يُبتلى، وظالمٌ يتمادى، ودعاءٌ يتأخر جوابه. وهنا يُختبر معنى الإيمان بأحكام الحاكمين: هل تؤمن بحكمة الله ما دامت توافق توقعاتنا فقط، أم نثبت أصلها حين تغيب عنا تفاصيلها؟ إن العقل المؤمن لا يوقف سؤاله، لكنه يفرق بين السؤال الباحث والاعتراض الذي يجعل علمه المحدود حاكماً على العلم الإلهي.

لسنا مطالبين بأن نزعم معرفة الحكمة التفصيلية من كل مصيبة؛ فقد يكون من التكلف أن نضع جواباً سريعاً فوق جرح عميق، أو نحول آلام الناس إلى دروسٍ باردة قبل أن نواسيهم. أحياناً يكون أصدق الإيمان أن نقول: لا نعرف الحكمة الخاصة، لكننا نعرف ربنا؛ نعرف أنه لا يظلم، وأن رحمته أوسع من مشهدنا، وأن القصة لم تنته بعد. هذه ليست حيلةً للهروب من السؤال، بل تواضعٌ معرفي يضع الجزء في حجمه أمام علم الكل.

فالإنسان يرى صفحةً واحدة، والله يعلم الكتاب كاملاً؛ يرى اليوم، والله يعلم ما قبله وما بعده؛ يرى فقداً في الدنيا، والله يعلم ما يعوض به في الآخرة. ولو كشف للإنسان كل ما في القدر من تشابكٍ لربما عجز عقله عن احتماله، كما يعجز الطفل عن فهم أسباب جراحةٍ تؤلمه وهو لا يرى منها إلا السكين. غير أن الفرق ثابتٌ ومنزه عن مشابهة المخلوق: فالله سبحانه ليس كمثله شيء، وإنما يذكر المثل لتقريب محدودية إدراك الإنسان، لا لقياس الخالق على خلقه.

والإيمان بحكمة الله لا يمنع الحزن ولا الشكوى إليه؛ فقد بكى الأنبياء، ودعوا، وأظهروا فقرهم، ولم يكن ذلك اعتراضاً. الاعتراض أن يتحول الألم إلى اتهامٍ لله، أما الشكوى إليه فهي عبادةٌ تعلن أن القلب يعرف بابه. فرقٌ بين من يقول: يا رب، لا أفهم ولكنني ألوذ بك، وبين من يجعل عجزه عن الفهم دليلاً على غياب الحكمة.

وفي ختام السورة مواساةٌ لكل مظلومٍ لم يستطع استرداد حقه: ليس الحكم الأخير لمن غلبك، ولا لمن كتب الرواية عنك، ولا لمن يملك المنبر والسجن والمال؛ الحكم لله، وهو أحكم الحاكمين. قد يحاصرك خصمك في الدنيا، لكنه لا يستطيع أن يحاصر الحقيقة في علم الله، وقد يمنع صوتك من الوصول إلى الناس، لكنه لا يمنع أنينك من الوصول إلى رب الناس.

وهذه المواساة لا تخدر المقاومة، بل تحررها من اليأس. من أيقن أن الحكم لله يستطيع أن يقاوم الباطل ولو تأخرت النتيجة؛ لأنه لا يختزل قيمة موقفه في الانتصار العاجل. قد يخسر معركةً ويكون ثابتاً في ميزان الحق، وقد ينتصر خصمه ظاهرياً ويكون قد حفر بسلوكة موضع سقوطه. فليس كل غالبٍ ناجحاً، ولا كل مهزومٍ خاسراً؛ الحكم الكامل ينتظر اكتمال القصة.

وفي الآية تربيةٌ للحاكم والقاضي والأب والمربي وكل من وُضع في يده قدرٌ من السلطة. إذا كان الله أحكم الحاكمين، فعليك أن تستمد من هديه عدلك، وأن تتواضع لحدودك، وألا تحول سلطتك إلى حقٍّ في التحكم بأرواح الناس. كل حكمٍ بشري ينبغي أن يتذكر أنه محكومٌ بحكم الله؛ والقاضي الذي يجلس للفصل بين الناس سيقف يوماً خصماً أو شاهداً أو مسؤولاً أمام قاضي القضاة.

كم من إنسانٍ يطالب بالعدل حين يكون ضعيفاً، ثم ينساه حين يملك! يصرخ ضد الإقصاء حين يُقصى، فإذا تمكن أقصى مخالفه، ويتحدث عن حرية الكلمة حين يُمنع، فإذا صار القرار بيده ضاق بالنقد. إنه لم يكن يؤمن بالقيمة، بل كان يطلب حصته منها. أما العدل الحقيقي فيظهر حين تلزم نفسك بالمعيار نفسه الذي طالبت به خصمك، وحين تعطي من يخالفك حقاً كنت تتمناه لنفسك.

والآية ترد على هذه الازدواجية؛ لأن الله لا يتبدل حكمه بتبدل المواقع، ولا يصبح الظلم عدلاً حين يمارسه من نحب. هو أحكم الحاكمين؛ ومن أراد الاقتراب من هديه وجب أن يجعل الحق فوق الأشخاص والانتماآت. ليس معنى الوفاء لجماعتك أن تبرر خطأها، بل أن تنقذها من الخطأ، وليس حب القريب أن تمنحه حصانةً من الحساب، بل أن تعينه على ألا يقف به أمام الله.

ويكشف ختام السورة أن الحكمة أعلى من مجرد القدرة. لم تقل الآية: أليس الله بأقوى الأقوياء، مع أن قوته كاملة، بل اختارت مقام الحكم والحكمة؛ لأن القضية هي الجزاء والتمييز بين المسارات. قد يملك الإنسان قوةً ولا يملك حكمة استعمالها، فيكون خطره بمقدار قدرته؛ أما الله فتجتمع في حكمه القدرة المطلقة والعلم المحيط والعدل التام والرحمة الواسعة، فلا يقع حكمه على جهلٍ ولا عجز.

وهذا يعلم الإنسان ألا ينبهر بالقوة وحدها. الحضارات كثيراً ما تقيس العظمة بما تستطيع السيطرة عليه، لكن سورة التين تعيد العظمة إلى ميزان الحكمة: ماذا تفعل بقوتك؟ هل تحمي الضعيف أم تلتهمه؟ هل تجعل العلم باباً للعلاج أم أداةً للهيمنة؟ هل تعمّر الأرض أم تستنزفها لتشبع شهوة جيلٍ واحد؟ ليست القدرة برهاناً على الرشد؛ وقد يكون الامتناع عن فعلٍ ممكن أحياناً ذروة الحكمة.

ومن حكمة الله أن جعل للأعمال نتائج في النفس قبل نتائج الآخرة. فالصدق يورث قوة داخلية، والكذب يضطر صاحبه إلى مزيدٍ من الكذب ليحمي روايته، والرحمة توسع القلب، والقسوة تسجنه داخل ذاته. ليس هذا قانوناً آلياً يظهر فوراً في كل حالة، فقد يتألم الصادق ويربح الكاذب مؤقتاً، لكنه يكشف أن الأخلاق ليست أوامر منفصلة عن بنية الإنسان؛ إنها الطريق الذي يحفظ «أحسن تقويم» من الانحلال.

فالشر يعاقب صاحبه أحياناً بأن يحوله إلى شخصٍ لا يستطيع الاستمتاع إلا بمزيدٍ منه. الطمع لا يكتفي، والحسد لا يستريح، والكراهية تحتاج دائماً إلى عدو، والكذب يخاف الحقيقة في كل لحظة. وقد يظن الإنسان أنه يستخدم الخطيئة للوصول إلى غاية، ثم يكشف أنها استخدمته لصياغة شخصيته. أما الطاعة فتحرره تدريجياً من هذا الأسر؛ فكل انتصار على الهوى يوسع مساحة الاختيار في داخله.

وفي قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ حضورٌ للاسم الجامع الذي تلتقي عنده صفات الكمال. فالحكم ليس صادراً عن قوةٍ كونيةٍ مجهولة، بل عن الله الذي خلق ورزق وهدى ورحم، والذي عرف ضعف الإنسان قبل أن يكلفه، وفتح له باب التوبة قبل أن يحاسبه. لذلك لا ينفصل عدله عن رحمته، ولا تعني رحمته إلغاء العدل؛ يغفر لمن تاب، ويعفو عن من شاء بحكمته، لكنه لا يجعل رحمته شعاراً لطمأنة الظالم المصّر وإهدار حق المظلوم.

كثيراً ما يريد الإنسان رحمةً تلغي عواقب اختياراته من غير أن تغيره، أو يريد عدلاً على الآخرين ورحمةً مفتوحةً لنفسه. أما حكم الله فليس تابعاً لأهوائنا الانتقائية؛ رحمته حق، وعذابه حق، ووعدته ووعيدته حق. والرجاء الصادق لا ينفصل عن السير إليه، كما أن الخوف الصحيح لا يقود إلى القنوط بل إلى التصحيح.

وهنا يظهر التناسب البديع بين أول السورة وآخرها. في البداية يقسم الله بمواضع ارتبطت برسالاته، وفي النهاية يعلن كمال حكمه؛ فكأن الوحي هو بيان الحكمة، والجزء هو تمامها. أرسل الله الرسل حتى لا يحتج الإنسان بالجهل، وختم بالقيامة حتى لا يظن أن البيان كان بلا مسؤولية. بين الرسالة والحكمة يعيش الإنسان امتحانه: يسمع، ويختار، ويعمل، ثم يلقي حكماً لا يظلمه.

والتناسق يمتد إلى قلب السورة: ﴿أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾ في الخلق، و﴿أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ في التدبير والجزاء. فالذي أحسن البنية هو الذي أحكم الغاية، ولا ينفصل جمال الخلق عن حكمة المصير. لو خلق الإنسان في هذا التقويم ثم أُلقي في عدمٍ لا حساب فيه، لبدا ذلك التكريم بلا خاتمةٍ تليق به؛ أما البعث فيكشف أن كل ملكةٍ مُنحت له كانت جزءاً من أمانةٍ ستُسأل عن أدائها.

وبين «أحسن» و«أحكم» تقف كلمة «أسفل» إنذاراً بأن الإنسان يستطيع أن يشذ باختياره عن تناسق الخلق، لكنه لا يستطيع الخروج من سلطان الحكم. قد يعطل حكمته الصغيرة، لكنه سيقف أمام حكمة الله؛ وقد يهرب من قاضي الأرض، لكنه يسير إلى أحكم الحاكمين. ليست الحرية خروجاً من الملك الإلهي، بل حركةٌ داخل نطاق التكليف، يعقباها الجزاء.

وما أروع أن تنتهي السورة بسؤال لا بخبرٍ مجرد؛ لأن السؤال يجعل القارئ مشاركاً في الخاتمة. لا يستطيع أن يبقى متفرجاً على المعنى، بل يجد نفسه مضطراً إلى أن يجيب. وإذا قال: بلى، فليست «بلى» صوتاً ينتهي، بل عهداً يبدأ. إذا كان الله أحكم الحاكمين، فعلياً أن أثق بحكمه، وأحتكم إلى هديه، وأعدل بقدر استطاعتي، وأراجع نفسي قبل أن أقف بين يديه.

أن تقول: «بلى» يعني ألا تجعل تأخر العدل دليلاً على غيابه، وألا تجعل غموض القدر دليلاً على العبث، وألا تجعل انتصار الباطل لحظةً حكمًا على نهاية التاريخ. يعني أن تعمل وأنت مطمئن إلى أن الموازين ستستقيم، وأن تصبر من غير أن تستسلم، وأن تقاوم الظلم من غير أن تتحول إلى ظالم، وأن تسامح حين يكون الصفح إصلاحاً، وتطالب بالحق حين يكون السكوت خيانة.

وأن تقول: «بلى» يعني أن تقبل حكم الله حين يخالف هواك، فلا تنتقي من الوحي ما يوافقك وتترك ما يحد رغبتك. فالإيمان بأحكام الحاكمين ليس ثناءً نظرياً على الحكمة، بل تسليمٌ عملي لها؛ لأن من يوقن أن الله أحكم ثم يرى حكم نفسه أهدى من حكمه قد ناقض قوله بفعله. ولا يعني التسليم تعطيل العقل، بل أن يستخدم العقل لفهم مراد الله، لا لمحاكمة الوحي بأهواء العصر المتقلبة.

وأن تقول: «بلى» يعني أن تنظر إلى الناس بعين المسؤولية؛ فلا تحكم على السرائر التي لم يطلعك الله عليها، ولا تجعل ظنك يقيناً، ولا تنقل شائعةً كأنها شهادة. ما دام الله أحكم الحاكمين، فلي تذكر الإنسان أنه ليس أحكمهم؛ وأن تواضعه في الحكم على الخلق عبادةً من عبادة المعرفة بحدوده.

كم من علاقةٍ هدمتها الأحكام العجولة، وكم من بريءٍ عاش تحت وطأة قصةٍ لم يسأل عنها، وكم من إنسانٍ اختصر تاريخه في خطأ واحد! أما الحكمة فتفرق بين رفض الفعل وإلغاء الفاعل، وبين محاسبة المخطئ وحرمانه من إمكان العودة. الله فتح باب التوبة، فكيف يغلقه البشر في وجه من صدق في إصلاحه؟ ومع ذلك، لا تعني التوبة إسقاط حقوق المتضررين ولا مطالبتهم بنسيان جراحهم قسراً؛ فالحكمة تجمع الرحمة والعدل، ولا تجعل أحدهما ذريعةً لإهدار الآخر.

وتقول الآية لمن قسا على نفسه: إن الحكم الأخير ليس لصوتك الجريح الذي يكرر أنك لا تستحق النجاة، بل لله أحكم الحاكمين. إذا ثبت بصدق فلا تجعل ماضيك أقوى من عفوه، ولا تظن أن من عرف ذنبك من البشر يملك أن يغلق عنك باب السماء. قد تحتاج إلى إصلاح ما أفسدت وتحمل آثار فعلتك، لكنك لا تحتاج إلى عبادة الذنب بعد التوبة؛ فربك يحكم بالعلم والعدل والرحمة، لا بانطباعات الناس.

كما تقول لمن اغتر بنفسه: الحكم ليس لك. قد تمدحك الجماهير، وتشهد لك الأرقام، وتكتب اسمك في الواجهات، لكن ذلك كله لا يسبق حكم الله ولا يغني عنه. لا تجعل حسن ظن الناس شهادة براءة نهائية، بل اجعله أمانة تزيد خوفك من أن تكون صورتك أكبر من حقيقتك. وأصدق الناس مع نفسه من لم يخدعه مدحٌ عن رؤية نقصه، ولم يمنعه نقدٌ جائر من معرفة فضله الذي أنعم الله به عليه.

ويظل السؤال القرآني يرافق الإنسان في تفاصيله الصغيرة: حين يعترضه اختيارٌ لا يراه أحد، يتذكر أن الحكم لله؛ وحين يضيق من تأخر ثمرة الخير، يتذكر أن الحكمة لله؛ وحين يفقد ما يحب ولا يفهم، يتذكر أن العلم لله؛ وحين يطالبه الهوى بأن يظلم خصمه، يتذكر أنه سيقف مع خصمه أمام الله. هكذا تتحول العقيدة من جملةٍ محفوظة إلى بصيرةٍ تمثي في السوق والبيت والسجن والمحكمة والطريق.

إن «أحكم الحاكمين» ليست فقط حقيقةً نؤمن بها عن الآخرة، بل ميزانٌ نعيد به بناء الدنيا. لأن الله حكيم نطلب العلم، ولأنه عادل نقاوم الظلم، ولأنه رحيم نرفق بالخلق، ولأنه يحاسب نزاجع أنفسنا، ولأنه يغفر لا نياس من الإصلاح. كل صفةٍ نعرفها عن الله تفتح أمامنا واجباً في حدود عبوديتنا، من غير أن نشبهه بخلقه أو نزعم لأنفسنا شيئاً من خصائص ألوهيته؛ تعالى سبحانه عن الشبيه والنظير.

وعندما يستقر القلب عند هذه الآية، تهدأ فيه فوضى الأسئلة من غير أن تنتهي حركة التفكير. فالإيمان لا يمنح الإنسان تفصيل كل جواب، لكنه يمنحه الأرض التي يقف عليها وهو يبحث. يستطيع أن يقول: لا أعرف لماذا وقع هذا التفصيل، لكنني أعرف أن العالم ليس خارج الحكمة؛ لا أعلم متى يظهر الحق، لكنني أعرف أنه لا يضيع؛ لا أحيط بما ينتظرني، لكنني أعرف من إليه المصير.

وهذه المعرفة بالله أثمن من معرفة تفاصيل الطريق كلها؛ لأن المسافر إذا وثق بالدليل استطاع أن يعبر المنعطف الذي لم يفهمه، أما إذا فقد الثقة لم تنفعه كثرة الخرائط. والمؤمن لا يثق بقدر مجهول منفصل، بل برّب حكيم رحيم أخبر عن نفسه، وأقام في الخلق والوحي ما يدل عليه، ووعد ألا يضيع عمل عامل.

وفي اللحظة الأخيرة من السورة يعود الإنسان إلى بدايتها فيراها بعين جديدة: التين والزيتون لم يكونا ثمرتين معزولتين، بل شاهدين على الإحسان؛ وطور سينين لم يكن جبلاً صامتاً، بل شاهداً على البيان؛ والبلد الأمين لم يكن مكاناً فحسب، بل موطن الرسالة الخاتمة؛ وأحسن تقويم لم يكن مدحاً للهيئة، بل تأسيساً للمسؤولية؛ وأسفل سافلين لم يكن تشاؤماً من الإنسان، بل إنذاراً من خيانة الإمكان؛ والإيمان والعمل الصالح لم يكونا شعاراً، بل طريق استرداد المقام؛ والدين لم يكن خبراً بعيداً، بل ضرورة اكتمال العدل؛ ثم جاءت الحكمة لتجمع ذلك كله في يد الحقيقة.

إن السورة، على قصرها، تبني رؤيةً كاملةً للإنسان: أصله تكريم، وطريقه امتحان، وخطره السقوط، ونجاته الإيمان والعمل، ومستقبله الجزاء، وربّه أحكم الحاكمين. لا تتركه مغروراً بأصله، ولا يأساً من ضعفه؛ ترفعه ليعرف ما أعطي، وتحذره ليعرف ما يمكن أن يضيع، ثم تفتح له الطريق وتطمئنه إلى أن جهده لن ينسى.

فإذا خرج القارئ من سورة التين وهو يردد: «بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»، فليس المراد أن ينتهي أثر السورة عند هذا التصديق، بل أن يبدأ منه. عليه أن يسأل نفسه: أين «أحسن تقويم» في اختياري؟ وما الذي يهبط بي؟ وما الإيمان الذي يحتاج إلى تجديد؟ وما العمل الصالح الذي ينتظر يدي؟ وأي مظلمة ينبغي أن أصلحها قبل أن أقف أمام أحكام الحاكمين؟

حينئذ لا تعود السورة ثماني آيات تُتلى في دقائق، بل تصبح ميزاناً يمتد على العمر كله؛ كلما اغتر الإنسان رده إلى العبودية، وكلما احتقر نفسه رده إلى التكريم، وكلما استسلم لشهوته أرتته أسفل سافلين، وكلما تعب من الخير وعدته بأجرٍ غير ممنون، وكلما رأى اضطراب أحكام الأرض رفعت قلبه إلى الحكم الذي لا يضطرب:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾

بلى، سبحانه وتعالى، ونحن على ذلك من الشاهدين.

الْخَاتِمَةُ الْفِكْرِيَّةُ الْجَامِعَةُ

حِينَ يَسْتَرِدُّ الْإِنْسَانُ مَقَامَهُ بَيْنَ نُورِ الْفِطْرَةِ وَعَدَالَةِ الْمَصِيرِ

ها نحن نبلغ نهاية الرحلة في سورة التين، غير أن السورة لا تسمح لقارئها أن يغادرها كما دخل إليها؛ فقد أخذته من ثمرة يمر بها في حياته اليومية، وصعدت به إلى جبلٍ شهد نداء الوحي، ثم أدخلته بلداً أميناً احتضن الرسالة الخاتمة، قبل أن تعيده فجأةً إلى أخص أسرارهِ وأقربها إليه: إلى نفسه التي يحملها في كل مكان، لكنه قد يعيش عمره كاملاً من غير أن يدرك حقيقتها ولا يعرف مقدار الأمانة المودعة فيها.

بدأت السورة بالعالم من حول الإنسان، ثم انتهت بالعالم الكامن فيه؛ بدأت بآيات النعمة والوحي، ثم وضعته أمام الحلقة والاختيار والسقوط والإيمان والعمل والجزاء. وكأنها تقول له: لن تفهم الأشياء حقاً حتى تفهم موقعك بينها، ولن تفهم نفسك حتى تعرف من خلقها، ولن تعرف قدر ما منحك الله حتى ترى الهوة التي يمكن أن تهبط إليها إن قطعت صلتك به.

إنها سورة الكرامة، لكنها ليست كرامةً تدغدغ غرور الإنسان؛ وسورة الإنذار، لكنه ليس إنذاراً يسحق الرجاء؛ وسورة الجزاء، لكنه ليس جزاءً منفصلاً عن عدالة الحاضر وأخلاقه. إنها تبني الإنسان بين حقيقتين متوازنتين: أنت مخلوق في أحسن تقويم، فلا تهن نفسك، وأنت قادرٌ على الهبوط إلى أسفل سافلين، فلا تأمن عليها. بين هاتين الحقيقتين تتولد اليقظة: عزةٌ لا تستكبر، وخشيةٌ لا تياس، وثقةٌ لا تتحول إلى غرور، ومحاسبةٌ لا تنقلب إلى احتقارٍ للذات.

لقد أقسم الله بالتين والزيتون، فتعلمنا أن النعم الهائلة قد تكون أعمق من الأحداث الصاخبة، وأن الثمرة الصغيرة تحمل في نسيجها شهادةً على رحمة الخالق وحكمته. وتعلمنا أن الإنسان يعيش داخل الإحسان حتى ينساه، وأن الاعتياد قد يحجب المعجزة من غير أن يسلبها حقيقتها؛ فاليد التي تلتقط الثمرة أعجب من الثمرة، والعقل الذي يتأملها أعجب من اليد، والروح التي تنتقل من المشهد إلى معرفة المنعم هي السر الذي يرفع الإنسان فوق حدود المادة.

ومن التين والزيتون تعلمنا النضج؛ فالثمرة لا تبلغ تمامها في لحظة، وكذلك الروح لا يكتمل وعيها بمجرد مرور السنين. قد يمتلئ الرأس بالمعلومات ويبقى القلب خاماً، وقد تتراكم التجارب ولا تتحول إلى حكمة؛ لأن النضج لا تصنعه الحوادث وحدها، بل الطريقة التي يقرأ بها الإنسان حوادثه. الألم الذي لا يتدبر قد يورث مرارة، والألم الذي يمر عبر الإيمان قد يلد بصيرة؛ والنعمة التي لا تُشكر قد تصنع غروراً، والنعمة التي تعرف طريقها إلى المنعم تصير عبادة.

ثم وقفنا عند طور سينين، فرأينا أن الإنسان لا يكتفي برزق الجسد، بل يحتاج إلى خطابٍ يهدي العقل والضمير. لقد يستطيع أن يكتشف قوانين الأشياء، لكنه يظل محتاجاً إلى من يخبره لماذا يستعملها وإلى أي غاية؛ فقد صنعت المعرفة قوةً هائلةً، ولم تضمن أن تكون اليد التي تحملها عادلة. حين يفصل العلم عن الوحي قد يزداد الإنسان قدرةً على الهدم وهو يظن نفسه أكثر تقدماً، وقد تنمو أدواته بينما تضمر إنسانيته.

وعند الطور علمنا أن لكل إنسان فرعونه الذي ينبغي أن يواجهه، وأن أشد الفراعنة خفاءً هو ذاك الذي ينمو في أعماق النفس؛ حب السيطرة، والتعالي على الخلق، والرغبة في احتكار الصواب، وتحويل المكانة إلى حقٍّ في إذلال الآخرين. وليس كافيًا أن يلعن الإنسان طغاة التاريخ ما دام يسمح لبذرة الطغيان أن تنمو في بيته أو فكره أو جماعته؛ فالطاغية الكبير كان في بدايته نفساً لم تقبل المراجعة، ثم وجدت قوةً بلا رقابة، وتصفيقاً بلا نصيحة، وخوفاً يمنع الناس من قول الحقيقة.

ومن الطور تعلمنا أن الوحي لا يعزل الإنسان عن الحياة، بل يعيده إليها أكثر بصيرةً وثباتاً. فأنخلوة التي لا ترد صاحبها إلى الناس رحيماً وعادلاً قد تصبح استمئاعاً روحياً مغلقاً، والعبادة التي لا تهذب علاقة المرء بمن حوله لم تبلغ تمام أثرها. لقد نزل موسى من طوره ليقف أمام فرعون، وخرج محمد صلى الله عليه وسلم من غار حراء ليحمل أثقال العالم؛ لأن النور لا يُعطى للإنسان كي يحتفظ به في مخبئه، بل ليهدي به طريقاً.

ثم وصلنا إلى البلد الأمين، فتعلمنا أن قداسة المكان لا تغني عن صدق الإنسان، وأن الناس قد يحرسون الرمز ويحاربون رسالته، ويعظمون البيت ويعصون رب البيت. كم من أمةٍ تفخر بماضيها لأنها عجزت عن صناعة حاضرٍ يليق به، وكم من إنسانٍ يظن انتسابه إلى الصالحين عوضاً عن السير في طريقهم! لكن الجغرافيا لا تنجي قلباً خائئاً، والتاريخ لا يشفع لحاضرٍ يناقض قيمه؛ فالله لا يسأل المرء عن الأسماء التي حملها، بل عن المعاني التي حققها.

وعند البلد الأمين أدركنا أن الأمن ليس مجرد غياب السلاح، بل حضور العدل؛ وأن المكان لا يكون آمناً إذا اطمأن فيه الظالم إلى سلطته وخاف الضعيف على حقه. قد تصمت المدن تحت القبضة، لكن الصمت المفروض ليس سلاماً، كما أن الهدوء الذي يغطي الجرح ليس شفاءً. الأمن الحق أن يأمن الإنسان على جسده وكرامته وكلمته وحقه، وأن تكون القوة حارسةً للعدل لا بديلاً عنه.

ثم جاءت الآية المركزية التي كشفت سر الرحلة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. عندها علمنا أن الإنسان ليس كائناً تائهاً في كونٍ أصم، بل مخلوقٌ مقصود، أحسن الله بناءه وهياؤه للمعرفة والعبادة والعمران. لم تكن قامته المنتصبة إلا وجهاً ظاهراً من تقويمٍ أعمق؛ عقلٌ يفكر، ولسانٌ يبين، وقلبٌ يفقه، وضميرٌ يحاكم، وإرادةٌ تختار، وروحٌ لا تستقر تماماً إلى حدود التراب.

لكن «أحسن تقويم» لم يكن شهادة تزكية دائمة، بل وثيقة تكليف. لقد أعطى الله الإنسان الإمكان، وترك له في دائرة مسؤوليته أن يحقق هذا الإمكان أو يبدده. ولذلك كانت كرامته أصلاً ينبغي احترامه، وأمانةً ينبغي أن يفني بها. لا يجوز لأحد أن يهين إنساناً بسبب لونه أو فقره أو عجزه أو أصله، كما لا يجوز للإنسان أن يتخذ التكريم ذريعةً لتأليه نفسه؛ هو كريمٌ لأنه عبدٌ أحسن الله خلقه، لا لأنه إلهٌ صغير يدور الوجود حول رغباته.

لقد صححت السورة بذلك خطأين يتنازعان الفكر البشري: تصوراً يسحق الإنسان حتى يجعله بلا قيمة، وتصوراً يرفعه حتى يجعله مركز الكون وسيداً مطلقاً لا يُسأل. القرآن لا يضعه في التراب مهاناً، ولا يجلسه على عرش الألوهية؛ بل يقيمه في مقام العبودية المكرمة: رأسه مرفوعٌ أمام الخالق، وجبهته ساجدةٌ للخالق. ومن هنا تنبع حريته الحقيقية؛ لأنه حين يعبد الله وحده يتحرر من عبادة السوق والجمهور والسلطة والشهوة وصورته في عيون الآخرين.

ثم انفتح تحت القمة قاعٌ مخيف: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. وعلينا أن مأساة الإنسان لا تكمن فقط فيما لم يُعطَ، بل فيما أعطيه ثم أضاعه؛ وأن سقوط المكرم أمدح من سقوط من لم يحمل أمانةً. فالعقل الذي يكتشف الدواء يستطيع أن يبتكر وسيلة الإبادة، واللسان الذي يواسي يستطيع أن يفتری، واليد التي تبني تستطيع أن تهدم، والتنظيم الذي يعمر المجتمع يستطيع أن يحول الظلم إلى مؤسسة.

ولم يكن الهبوط لحظةً واحدةً يختار فيها الإنسان أن يصير شريراً كاملاً؛ إنه يبدأ غالباً من تنازلٍ يبدو صغيراً، ومن كذبةٍ يقال إنها عابرة، ومن مظلمةٍ يظن صاحبها أنها لا تستحق التوقف، ومن عذرٍ يحمي الخطأ من التوبة. ثم تكرر الأفعال حتى تخفت حساسية القلب، ويتحول القبيح إلى مألوف، ثم يتحول المألوف إلى حقٍّ يدافع عنه صاحبه. وهكذا يكون أخطر ما في الخطيئة أنها لا تأخذ من الإنسان صفاء لحظته فقط، بل تعيد تشكيله ليصبح أكثر استعداداً لخطيئةٍ أخرى.

ورأينا أن «أسفل سافلين» قد يفهم في ضوء الرد إلى ضعف العمر، أو الهبوط المعنوي، أو المصير الأخروي، وأن الضعف الجسدي لا يعني سقوط القيمة. فالشيخ الذي انحنت قامته قد يكون عند الله أعلى من شابٍ استقام جسده وانحنى ضميره، ومن فقد بعض قواه لا يفقد حقه في الكرامة. المجتمع الذي يهمل ضعفاءه لأنه لا يرى فيهم قدرةً إنتاجيةً هو الذي هبط في إنسانيته، لا أولئك الذين غلبهم المرض أو العمر.

وإذا كان الجسد قد يمضي - بسنن الله - من القوة إلى الضعف، فإن الروح تستطيع أن تمضي في الاتجاه المعاكس؛ يضعف الجسد ويقوى اليقين، تقل الحركة وتوسع البصيرة، تضيق الدنيا أمام الشيخ وتفتح في قلبه الآخرة. فليس العمر ما تقوله ملامح الوجه وحدها، بل ما راكمه القلب من معرفةٍ وصدق؛ وكم من شابٍ يحمل روحاً عجوزاً أنهكتها الغفلة، وكم من شيخٍ بقي قلبه غضاً بالإيمان.

ثم جاءت ﴿إِلَّا﴾ فَأُنْقَذَتِ المشهد من ظلمة المصير المغلق: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. إنها كلمة الرجاء التي تقول إن الإنسان لا يُترك لقانون الانحدار، وإن طريق العودة مفتوح ما دام في القلب نبضٌ يعرف ربه، وفي الإرادة بقيةٌ تستطيع أن تختار. الإيمان يعيد للوجود مركزه، والعمل الصالح يعيد للحركة اتجاهها؛ وباجتماعهما يسترد الإنسان مقامه.

ولم يكن الإيمان مجرد معلومةٍ ثبت في الذهن، بل أماناً يرد القلب إلى الله، وتحرراً من الآلهة الصغيرة التي تتنازع النفس. المؤمن لا يعني أنه لا يحزن، بل أن حزنه لا يسقط به في العدم؛ ولا يعني أنه لا يخاف، بل أن خوفه لا يشتري ضميره؛ ولا يعني أنه يفهم كل أقدار الله، بل أنه يعرف من يثق بحكمته حين تعجز معرفته عن الإحاطة بالتفاصيل.

أما العمل الصالح فهو الإيمان حين يغادر خفاء القلب إلى شهادة الحياة. هو صلاةٌ تنهى عن الفحشاء، وصدقٌ في السوق، ورحمةٌ في البيت، وعدلٌ عند الخصومة، وأمانةٌ في الوظيفة، وشجاعةٌ أمام الظلم، وكفٌّ للأذى حين يعجز المرء عن تقديم النفع. ليس الصالح حدثاً ضخماً ينتظر الناس ظروفه النادرة، بل خياراتٌ صغيرة متتابعة يبني بها الإنسان نفسه والعالم من حوله.

وقد علمتنا السورة أن الإنسان لا يفعل العمل فقط، بل إن العمل يفعله من جديد؛ كل صدقٍ يجعله أقدر على الصدق، وكل عفٍ يحرره قليلاً من أسر الكراهية، وكل مقاومةٍ للهوى توسع في داخله مساحة الحرية. وكما تصنع الخطايا المتكررة قلباً يأنس بالقاع، تصنع الصالحات المتتابعة روحاً تهفو إلى العلو؛ ولذلك لم يكن العمل الصالح ثمناً خارجياً للجنة وحدها، بل كان طريقاً لإصلاح جوهر الإنسان قبل أن يصل إليها.

ثم جاء الوعد: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، ليقول لكل عاملٍ في الظل إن الله لا ينساه، ولكل صاحب خيرٍ لم يرَ ثمرته إن الثمرة ليست المقياس الوحيد لقيمة البذر، ولكل كبيرٍ عجز جسده عما اعتاده إن تاريخ صدقه لم يُمحَ بضعفه. قد تنتهي قدرة المرء ولا ينتهي أجره، وقد يسقط اسمه من ذاكرة البشر ويبقى في سجل السماء، وقد ينسب عمله إلى غيره، لكن الله لا تختلط عليه الأسماء ولا تلتبس عنده النيات.

ما أرحم عبارة ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ في عالمٍ محكوم بالانقطاع؛ فكل شيء هنا مهددٌ بالزوال: الصحة، واللقاء، والمال، والجمال، والقدرة. حتى أفراح الدنيا تحمل في أطرافها حزن الفراق الآتي، أما أجر الله فلا يقطعه موت ولا يهدده تغير. إنه العطاء الذي لا يقف صاحبه خائفاً من نهايته، والنعمة التي لا تنغصها ذاكرة الزوال.

ثم واجهت السورة الإنسان بسؤالها الحاد: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الدِّينِ﴾. بعد حكمة الخلق، وبعد إرسال الوحي، وبعد اختلاف طرق البشر، وبعد قيام الضمير في الداخل شاهداً على الفرق بين العدل والظلم؛ ما الذي يجعل الإنسان ينكر الجزاء؟ أيقبل أن تكون قصة المحسن والمسيء ذات خاتمة واحدة، وأن يتلغ الموت صرخة المظلوم كما يتلغ ضحكة جلاده، من غير يومٍ تسترد فيه الحقوق؟

لقد اتضح لنا أن الإيمان بالآخرة ليس هروباً من الأرض، بل حمايةً لمعناها الأخلاقي؛ فهو الذي يمنع الإنسان من أن يجعل قدرته معيار الحق، ويقول له إن الإفلات من قضاء البشر لا يعني الإفلات من علم الله. وهو في الوقت نفسه عزاء المظلوم الذي عجزت محاكم الدنيا عن إنصافه؛ فحقه لم يضع، ودمعه ليست حادثةً نسيها الكون، وصمته الذي فرضه الخوف معلومٌ عند من لا يحتاج إلى شهادةٍ حتى يقيم العدل.

إن يوم الدين هو اليوم الذي تنهار فيه بلاغة التبرير، وتنكشف الأعمال بلا مساحيقها. لن تنفع الظالم الأسماء الجميلة التي منحها لجرائمه، ولن يضيع الصادق لأنه عجز عن تقديم نفسه في صورةٍ جذابة. هناك لا يُحاسب الناس بحسب قدرتهم على صياغة الرواية، بل بحسب حقيقة ما كان؛ إذ تتساقط الألقاب وتبقى الأعمال.

وأخيراً جاءت الآية التي حملت السورة كلها إلى شاطئ اليقين: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾. لم تنته الرحلة عند الإنسان، بل عند الله؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يفهم بدايته ولا طريقه ولا مصيره إذا فصلها عن ربه. الله هو الذي أحسن تقويمه، وأرسل إليه هدايته، وأقام عليه حجته، وفتح له طريق نجاته، ووعد بأجره، وإليه يعود حكمه.

إن الإيمان بأن الله أحكم الحاكمين لا يعني ادعاء فهم كل ما يقع، بل الثقة بأن ما خفي عن العقل لم يخرج عن الحكمة. نحن نرى جزءاً قصيراً من القصة، ونحكم أحياناً على القدر من سطر واحد، أما الله فيعلم أولها وآخرها وما بينهما. وقد تكون الحكمة في بعض الأقدار ظاهرة، وقد تبقى محجوبة حتى الآخرة؛ لكن حجابها عن إدراكنا ليس دليلاً على غيابها، كما أن عجز العين عن رؤية الشيء لا يعني عدم وجوده.

ولا ينبغي أن تتحول هذه الثقة إلى كلام بارد يلتقي على جراح الناس؛ فالمبتلى يحتاج إلى رحمة تحتضن ألمه قبل أن يسمع تفسيراً له، وقد يكون من الحكمة أن نقف بجوار الدمع في صمت مؤمن بدل أن ندعي معرفة السر الذي لم يكشفه الله لنا. الإيمان بالحكمة لا يجعلنا أوصياء على تفسير أقدار الآخرين، بل يجعلنا أكثر تواضعاً ورحمة.

لقد علمتنا الآية الأخيرة أن الحكم الكامل يحتاج إلى علم كامل وعدل كامل وقدرة كاملة، وهذه لا تجتمع إلا لله. البشر يحكمون بالظاهر، وتميل بهم مصالحهم، ويخطئون في تقديرهم، أما الله فلا يظلم ولا ينسى ولا يلتبس عليه سرُّ بعلن. ولذلك يستطيع المؤمن أن يهدأ من حاجته القلقة إلى تبرئة نفسه أمام كل إنسان؛ يكفيه أن يصدق مع الله، ويصحح ما أخطأ فيه، ثم يعلم أن الحقيقة لا تضيع عند أحكم الحاكمين.

لكن الإيمان بحكم الله لا يعفينا من إقامة ما نستطيع من العدل؛ فليس من الصدق أن نتنظر محكمة الآخرة بينما نشارك في ظلم الأرض. من أيقن أن الله أحكم الحاكمين وجب أن يكون أكثر الناس خوفاً من الحكم بالهوى، وأبعدهم عن اتهام السرائر، وأشدّهم إنصافاً لخصومه. إن «بلى» التي يجيب بها المؤمن عن سؤال السورة عهدٌ أخلاقي: بلى، ولذلك سأحاكم نفسي قبل أن أحاكم غيري، وأرد الحق قبل أن أوقف للسؤال عنه، وأجعل ولائي للعدل فوق ولائي لذاتي وجماعتي.

سورة التين، في جوهرها، ليست حديثاً عن الإنسان الذي وجد فحسب، بل عن الإنسان الذي ينبغي أن يوجد: إنسان يعرف كرامته فلا يسمح للطغاة بإذلاله، ويعرف ضعفه فلا يتكبر على الخلق؛ يستخدم عقله ولا يؤلهه، ويعتني بجسده ولا يختزل نفسه فيه، يحب الدنيا ولا يجعلها نهاية الوجود، يعمل للآخرة ولا ينسحب من عمارة الأرض.

إنها تريد إنساناً يحفظ التوازن بين الطين والنور؛ فلا يكره أرضيته حتى يعذب فطرته، ولا يستسلم لها حتى يطفئ روحه. يأكل من التين والزيتون شاكراً، ويصعد إلى طور المعنى متلقياً، ويدخل البلد الأمين حاملاً الأمانة، ثم يعود إلى نفسه فيجد فيها ساحة التكليف الكبرى. فما قيمة أن يزور الإنسان مواضع النبوات إذا لم يتحول قلبه إلى موضعٍ يستقبل الهداية؟ وما قيمة أن يقف عند الجبال المقدسة إذا بقي هواه هو الأعلى في داخله؟

لقد أخبرتنا السورة أن الإنسان مشروعٌ مفتوح بين قمتين وقاع: قمة الخلق في «أحسن تقويم»، وقمة الجزاء في «أجر غير ممنون»، وبينهما قاع «أسفل سافلين». ولا يعبر من المنحة إلى الجزاء إلا بجسر الإيمان والعمل الصالح. إن حسن الخلق فضلٌ سابق، أما حسن الخاتمة فثمرة هداية ومجاهدة وتوفيق؛ والبداية من الله منحة، والطريق إليه عبادة، والنهاية عنده عدلٌ ورحمة.

فلا يكفي أن يسأل الإنسان: كيف خلقتني الله؟ بل ينبغي أن يسأل: ماذا صنعت بما خلق في؟ ماذا صنعت بعقلي: هل جعلته نافذةً للحقيقة أم محامياً لهواي؟ وماذا صنعت بلساني: هل كان جسراً للصدق أم سكيناً في أعراض الناس؟ وماذا صنعت بقدرتي: هل حملت بها ضعيفاً أم أضفت إلى ضعفه؟ وماذا صنعت بألمي: هل حولته إلى رحمةٍ بالمتألمين أم إلى قسوةٍ أنتقم بها ممن لم يؤذني؟

هذه هي محاسبة «أحسن تقويم»؛ أن ينظر الإنسان إلى كل نعمةٍ في داخله بوصفها سؤالاً. الموهبة سؤال، والمعرفة سؤال، والمكانة سؤال، والمال سؤال، وحتى الجرح سؤال: ماذا ستصنع به؟ ليس المرء مسؤولاً عن كل ما وقع عليه، لكنه مسؤول - في حدود قدرته - عن الجهة التي يختار أن يمضي إليها بعد وقوعه. قد يؤذيه الناس، لكنه لا يمنحهم حق تحويله إلى صورةٍ منهم؛ وقد يُظلم، لكنه يستطيع أن يقاوم تحول المظلومية إلى رخصةٍ للظلم.

إن أعظم انتصارٍ يحققه الإنسان ليس دائماً أن يهزم خصمه، بل أن يمنع خصمه من إعادة تشكيل أخلاقه. أن يخرج من المعركة وهو لا يزال قادراً على العدل، وأن يحفظ قلبه من الكراهية العمياء، وأن يطالب بحقه من غير أن يسلب بريئاً حقه؛ فهذا انتصار «أحسن تقويم» على قوة الجرح التي تريد رده إلى أسفل سافلين.

وتعلمنا السورة أن العمل الصالح ليس حكراً على أصحاب المساحات الواسعة؛ ففي كل يومٍ بابٌ للعلو: كلمةٌ تمسكها قبل أن تجرح، وشائعةٌ تمنعها من العبور، وحقٌّ تؤديه، وضعيفٌ ترفق به، وخطأٌ تعترف به، وصلاةٌ تعود بها من شروذك، وصفحةٌ من القرآن ترد بها قلبك إلى مركزه. القمم الروحية لا تُبنى دائماً من أحداثٍ استثنائية؛ كثيراً ما تُبنى من أماناتٍ صغيرة أداها أصحابها حين لم يكن أحد يراقبهم.

وكذلك القاع لا يبدأ دائماً بجريمةٍ كبرى؛ قد يبدأ بنظرة استعلاء، أو لذة خفية في أذى الخصم، أو رضا عن مدحٍ نعلم أننا لا نستحقه، أو سكوتٍ عن حق لأن المتضرر ليس من جماعتنا. لذلك تحتاج الروح إلى يقظةٍ لا تنقطع، لا خوفاً مرضياً يشلها، بل محبةً للمقام الذي خلقها الله له.

إن المؤمن لا يحاسب نفسه لأنه يكرهها، بل لأنه يعرف قيمتها ولا يريد أن يبددها. والطبيب يفحص الجرح لأنه يريد شفاء الجسد، لا لأنه يبغضه؛ وكذلك محاسبة النفس رحمةٌ بها حين تكون في ضوء الرجاء. أما جلد الذات الذي يغلق باب العمل فليس توبة، بل قد يكون لوناً آخر من التمرکز حول النفس؛ تظل تحرق في سقوطك حتى تنسى ربك الذي يدعوك إلى القيام.

وسورة التين ترفض اليأس كما ترفض الغرور؛ فمن قال: أنا خلقت في أحسن تقويم فلا يضرنى ما أفعل، نسي «أسفل سافلين»، ومن قال: قد هبطت فلا عودة لي، نسي ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وبين النسيانين يقوم المؤمن: يخاف فيعمل، ويرجو فينهض، ويعرف أن التوبة لا تعيد كتابة الماضي لكنها تعيد توجيه المستقبل، وقد يحول الله بها آثار السقوط إلى معرفةٍ تحرس صاحبها من السقوط مرةً أخرى.

وفي نهاية هذه الرحلة لا تبدو سورة التين قصيرةً كما بدت عند بدايتها؛ فقد اتسعت حتى احتوت تاريخ النبوة، وسر الخلق، وفلسفة الأخلاق، ومأساة الانحدار، ومنهج النجاة، وضرورة الآخرة، وكمال الحكم الإلهي. إنها ثماني آيات، لكن كل آية فيها بابٌ إلى الإنسان، وكل بابٌ يقود في النهاية إلى الله.

تقول له الثمرة: لقد أنعمت عليك، فلا تغفل. ويقول له الطور: لقد هديت، فلا تتبع هواك. ويقول له البلد الأمين: لقد بلغت الرسالة، فلا تخن الأمانة. ويقول له أحسن تقويم: لقد كُرمت، فلا تهن نفسك بالمعصية. ويقول له أسفل سافلين: إن الانحدار ممكن، فلا تأمن غفلتك. ويقول له الاستثناء: إن النجاة ممكنة، فلا تيأس. ويقول له الأجر غير الممنون: إن الخير محفوظ، فلا تتوقف لأن الناس لم يروك. ويقول له يوم الدين: إنك مسؤول، فلا تعش كأن اللحظات تموت. ويقول له ختام الحكمة: إن الحكم لله، فلا يفتنك اضطراب أحكام الأرض.

هكذا تعيد السورة الإنسان إلى حجمه الحقيقي: أكبر من أن يكون عبداً للشهوة، وأصغر من أن يكون رباً لنفسه؛ مكرماً لكنه مسؤول، ضعيفاً لكنه قادرٌ بإعانة الله، عابراً في الدنيا لكنه ممتد الأثر، محاطاً بالغيب لكنه ليس متروكاً بلا دليل. إنه نقطة اللقاء بين التراب الذي يمشي عليه والنداء الذي يأتيه من السماء؛ فإن أصغى إلى النداء ارتفع، وإن أغلق قلبه لم تنفعه استقامة القامة عن اعوجاج المصير.

ولعل أصدق ما نختم به هذه الرحلة أن يقف كل منا أمام نفسه بعيداً عن صورة الناس وأحكامهم، ويسأل: أيُّ إنسانٍ أبنيه الآن بأيامي؟ هل تقودني اختياراتي إلى حقيقة «أحسن تقويم»، أم أنني أهبط ببطءٍ لا أشعر به؟ ما الذي ينبغي أن أتوب منه قبل أن يصير عادة؟ وما العمل الصالح الذي أعرفه وأؤجله؟ وأي حقٍّ للناس ما يزال معلقاً في ذمتي؟ وما الذي سأقول إذا وقفت بين يدي أحكم الحاكمين؟

ليس المهم أن نخرج من السورة بإعجابٍ بجمال معانيها فحسب، بل أن تخرج هي معنا إلى الحياة؛ أن تقف بيننا وبين كلمة ظالمة، وتوقفنا عند فتنة القوة، وتعزينا حين يُساء فهمنا، وتحرس رجاءنا حين نتعث، وتذكرنا عند كل خيرٍ مجهول أن لنا أجراً غير ممنون. فالتدبر الذي لا يتحول إلى أثرٍ يبقى ضوءاً رأته العين ولم تسمح له بالدخول إلى القلب.

يا أيها الإنسان، لست مهملاً في الوجود؛ لقد خلقك الله في أحسن تقويم. فلا تجعل عقلك أداةً لتزيين الباطل، ولا لسانك طريقاً إلى أذى الخلق، ولا قدرتك سُلماً إلى رقاب الضعفاء. احفظ فيك ما أحسن الله خلقه، وجدّد إيمانك، وأصلح عملك، ولا تحزن إن غاب أجرك عن عيون الناس؛ فإن الذي أحسن خلقك هو الذي يحفظ سعيك، والذي يعلم سرك هو الذي يتولى حكمك.

وإذا ضاقت بك أحكام الأرض، وتقدّم من لا يستحق، وتأخر من يستحق، ورأيت الموازين تميل تحت ضغط المال والقوة، فلا تظن أن الميزان الأخير قد اختل. هذه الدنيا ساحة العمل وليست خاتمة الحكم، وصفحة الامتحان لا كتاب النتيجة. سيأتي يومٌ توضع فيه الأشياء في مواضعها، ويعرف كل إنسانٍ ما قدم، ويسترد المظلوم حقه، ويرى المحسن أن خيره لم يذهب في صمت الطريق.

فامضِ إلى الله بقلبٍ عرف كرامته ولم يعبدها، وعرف ضعفه ولم يستسلم له؛ اعمل ما استطعت من الصالحات، ورد عن العالم ما استطعت من الفساد، وكن شاهداً على أن الإنسان يستطيع أن يحفظ نوره وسط العتمة، وأن يظل عادلاً في زمن الانحياز، رحيماً في زمن القسوة، صادقاً في سوق الأكاذيب، ثابتاً حين تُباع المواقف.

وكلما أعياك الطريق، فعد إلى السورة من أولها؛ خذ من التين والزيتون معنى البركة، ومن
الطور ثبات الرسالة، ومن البلد الأمين أمانة الوحي، ومن أحسن تقويم عزة الإنسان، ومن
أسفل سافلين خوف الانحدار، ومن الإيمان والعمل قوة النهوض، ومن الأجر غير الممنون
صبر الطريق، ومن يوم الدين يقين العدالة، ومن خاتمة السورة سكينه التسليم.

ثم قلها لا بلسانك وحده، بل باختياراتك ومواقفك وما بقي من عمرك:

بَلَى، وَاللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَاحْكُمُ الْخَائِكِينَ.

تم بحمد الله وتوفيقه